

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ الْاَنْفَالِ

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



٧ ش باب الأخضر المشهد الحسيني

القاهرة ٩٣٦٠٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومنى والاه

وبعد فهذا تفسير لسورة الأنفال أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا
لوجهه ونافعا لعباده إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوي

تمهيد بين بدى تفسير السورة

١ - سورة الأنفال هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف ، فقد تقدمتها سورة الفاتحة وهي مكية ، ثم جاءت بعد سورة الفاتحة أربع سور مدنية ، هن أطول السور المدنية في القرآن ، وهن سور : البقرة ، آل عمران ، النساء . المائة . ثم جاءت بعد هذه السور الأربع سورتان مكيتان ، وهما أطول السور المكية في القرآن ، سورتا : الأنعام والأعراف ثم جاءت سورة الأنفال بعد ذلك ، فكانت الثامنة في ترتيب سور المصحف .

٢ - وعدد آياتها خمس وسبعون آية في المصحف السكوفي ، وست وسبعون في الحجازي ، وسبع وسبعون في الشامي .

٣ - وقد سميت سورة الأنفال بهذا الاسم ، لحديثها عن الأنفال أى الغنائم في أكثر من موضع .

وقد أطلق عليها بعض الصحابة سورة بدر ، فقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عنها فقال . تلك سورة بدر (١)

٤ - وسورة الأنفال كلها مدنية ، ومن قال بذلك : زهد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وهطاء بن أبي رباح والحسن ، وعكرمة .

قال صاحب المنار : وقبل إسلامها مدنية إلا آية ٦٤ ، وهي قوله تعالى : يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أـلم عمر بن الخطاب ، فعلى . لذا وضعت في سورة الأنفال وقرئت مع آياتها التي نزلت في التحريض على القتال في غزوة بدر لمناسبتها

للمقام ، وروى عن مقاتل استثناء قوله - تعالى - « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك . . . الآية ٣٠ » ؛ لأن موضوعها اتجار قريش بالنبي - ﷺ - قبيل الهجرة ، بل في الآية التي خرج فيها رسول الله - ﷺ - مع صاحبه أبي بكر بقصد الهجرة وباتفاق الغار ، وهذا استنباط من المعنى ، وهو استنباط يردده ماصح عن ابن عباس من أن الآية نفسها نزلت في المدينة .

وزاد بعضهم استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية ، وهي قوله - تعالى - : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ... » إلى قوله : « بما كنتم تكفرون » (الآيات من ٣١ - ٣٥) ؛ لأن موضوعها حال كفار قريش في مكة ، وهذا لا يقتضى نزولها في مكة ، بل ذكر الله بها رسول بعد الهجرة ، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني ، (١) .

والذي ترقح إليه النفس أن سورة الأنفال جميعها مدنية ، وأن ما في بعض آياتها من أوصاف لأحوال المشركين في مكة قبل الهجرة لا يعنى كون هذه الآيات مكية ؛ لأن هذه الآيات إنما هي من باب تفكير الرسول وأصحابه بما كان عليه أولئك القوم من عناد ومكابرة وانحراف عن الطريق القويم ، أدى بهم إلى الهزيمة في بدر وفي غيرها من المعارك التي كان النصر فيها للمؤمنين .

هـ - وقد ذكر بعض المفسرين - ومنهم اللخشمي - أن سورة الأنفال نزلت بعد سورة البقرة ، ولعل مرادهم بذلك أن نزولها كان بعد نزول بعض الآيات من سورة البقرة . لأنه من المعروف أن سورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما ابتداء نزولها بعد الهجرة ، ثم امتد هذا النزول لآياتها إلى قبيل وفاة الرسول - ﷺ - بمدة قصيرة .

٦ - قال الألوسي : ووجه مناسبتهم السورة الأعراف أن سورة الأعراف

خبيها ، خط العفو وأمر بالعرف ، وفي هذه - أي الأنفال - كثير من أفراد المأمور به ، وفي الأعراف ذكر قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقرامهم ، وفي هذه ذكر - يُذَكِّرُ - وذكر ما جرى بينه وبين قومه .

وقد فصل - سبحانه - في تلك قصص آل فرعون وأضرابهم وما حل بهم وأجل في هذه ذلك فقال : « كذاب بآل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم »

وأشار هناك إلى سوء زعم الكفرة في القرآن بقوله - تعالى - : « وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتنا . . . » وصرح بذلك هنا إذ يقول . . « وإذا أتتكم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا . . . » إلى غير ذلك من المناسبات .

ثم قال الألوسي : والظاهر أن وضعا هنا ترقيني ، وكذا وضع براءة بعدها ، وإلى ذلك ذهب غير واحد . . . (١) .

والحق أنه بما لاعتنا لما يقوله الألوسي وغيره من المفسرين في بيان وجه مناسبة السورة للتي قبلها ، نرى أن هذه الأقوال لا تخلو من تكلف ، وأن كثيراً مما ذكره من مناسبات بين سورتين معيّنتين لا يختص بهما ، بل هو موجود فيهما وفي غيرهما .

فالألوسي - مثلاً - يجعل من وجوه مناسبة الأنفال للأعراف أن الأعراف فيها « وأمر بالعرف » وأن الأنفال فيها كثير من أفراد المأمور به . . . وهذا المعنى نراه في كثير من السور المتتالية ، فسورة آل عمران - مثلاً - من بين آياتها قوله - تعالى - : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . » (٢) وسورة النساء - التي بعدها - فيها

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١٥٨ تصرف يسير .

(٢) الآية ١٠٤ .

— أيضاً — كثير من أفراد المأمور به ؛ لأن الأمر بالمعروف من الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي .

والتي تميز إليه النفس أن ترتيب السور توفيقى ، وأن كل سورة لها موضوعاتها التي نراها بارزة بصورة تميزها عن غيرها .

٧ - وسورة الانفال عند ما تتأمل ما اشتملت عليه من آيات ، تراها تحدثنا - في مجموعها - عن غزوة بدر ، فتعرض أحداثها الظاهرة ، كما تعرض عن بشارات النصر فيها ، وتكشف عن قدرة الله وقديره في وقائع هذه الغزوة الحاسمة ، وتبين كثيراً من الإرشادات والنشريات الحريية التي يجب على المؤمنين اتباعها حتى ينالوا النجاح والفلاح .

روى البخارى عن ابن عباس أن سورة الانفال نزلت في بدر (١) :-

(أ) لقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن قصة الأنفال - أي

الغنائم — مردها إلى الله ورسوله ، وأن على المؤمنين أن يذعنوا لما يفعله فيها رسولهم — ﷺ — ثم وصف المؤمنين الصادقين أكل وصف ، وبشرتهم بأسمى المنازل ، وأرفع الدرجات .

قال - تعالى - : يا آلونك عن الانتقال قل الانتقال لله والرسول

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، (١)
لِنِجْمِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّيْتَهُمْ هَلِيمٌ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمْنُنُونَ رِزْقَنَا
يَنْفَقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ، (٤) .

(۲) صحیح البخاری . کتاب التفسیر ج ۶ ص ۷۷ طبعه مصطفیٰ

(ب) وبعد هذا الحديث الطيب عن أوصاف المؤمنين الصادقين ، تبدأ السورة في الحديث عن حال بعض الذين اشترى كوا في غزوة بدر ، وكيف أنهم كرهوا القتال في أول الأمر ، لأنهم لم يخرجوا من أجله وإنما خرجوا من أجل الحصول على التجارة التي قدم بها مشركو قريش من بلاد الشام لكن الله - تعالى - أراد أن يعلمهم وغيرهم أن الخير فيما قدره ، لا فيما يقدرون ويريدون .

استمع إلى السورة الكريمة بتأمل وتدبر وهي تصور هذه المعاني بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول .

د كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون (٥) يحادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٦) وإذا بعدكم الله لإحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين (٧) ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (٨) .

(ج) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألواناً من البشارات التي تشعر المؤمنين بأن الله - تعالى - قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه - سبحانه - سيحمل النصر في هذه المعركة حليفاً لهم ، ومن مظاهر هذه البشارات أن الله - تعالى - أمدهم إياهم من الملائكة مردفين ، وأمدهم بالنعاس ليكون مصدر طمأنينة لقلوبهم ، وأمدهم بمياه الأمطار ليتطهروا بها ، ولتفت الأرض من تحتهم ، وأمدهم قبل ذلك بعهده بعهده الذي جعلهم يقبلون على قتال أعدائهم بقلوب ماثرة الأقدام والشجاعة

قال - تعالى - : إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم

جاء من الملائكة مردفين (٩) وما جعله الله إلا بشري ولطمتم به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (١٠) إذا بغضبكم للناس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام (١١) .

(د) ثم وجهت السورة للكرامة خمس نداءات إلى المؤمنين، أرشدتهم في كل واحد منهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم .

فقد أمرتهم في النداء الأول بالثبات في وجوه أعدائهم ، ونهتهم عن الفرار منهم ، وهددت من يولم دبره بسوء المصير ، وأخبرتهم بأن الله معهم ما داموا معتمدين عليه ، ومستجيبيين لما يدعوهم إليه .

وأمرتهم في النداء الثاني بطاعة الله ورسوله ، وحذرتهم من المعصية ، ومن الذنوب بالكاثرين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

وأمرتهم في النداء الثالث بالمسارعة إلى أداء ما كلفوا به من تكاليف فيها سعادتهم وفلاحهم ، وخوفتهم من ارتكاب ذنوب لا يحقق شرها بالدين ارتكبوها وحدهم ، وإنما بهمهم وغيرهم عن رأوا المنكر فلم يعملوا على تغييره ونهتهم في النداء الرابع عن خيانة الله ورسوله ، أي : عن ترك فرائض الله ، وعن هجر سنة رسوله . . وحذرتهم من أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله وعن أداء واجباته .

ثم بشرتهم في النداء الخامس بأنهم إذا ما اتقوا الله حق تقاته ، فإنه - سبحانه - يرزقهم الهداية والنصر والنجاة من كل مكروه .

تدبر معي - أخي القارئ - هذه النداءات ، وما اشتملت عليه من توجيهات سامية وإرشادات عالية ، حيث يقول - سبحانه - :

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم
الآداب (١٥) ، ... يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه
وأنتم تسمعون (٢٠) ، ... يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول
إذا دعاكم لما يحييكم (٢٤) ، ... يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله
وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢٧) ، ... يا أيها آمنوا إن تقوا الله
يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم (٢٩) ، ...

(هـ) ثم أخفت السورة بعد ذلك في تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم
ليزدادوا له شكراً ، وفي تصوير ما عليه الكافرون من جهل وعناد وخسران .

فحكى ما قاله في شأن القرآن من كذب ومكارة .

وحكى استهزاءهم بالدين ، وإمعانهم في الجحود ، وتعجلهم للعذاب ..

وحكى ما كانوا يقومون به من تصفيق ولغو عند قراءة القرآن ،
حتى يشغلوا الناس عن سماعه ...

وحكى مسارعتهم إلى إنفاق أموالهم ، لا في وجوه الخير ، ولا في
وجوه الشر التي ستكون عاقبتها الخسران وسوء المصير .

وبعد أن حكى كل هذه الرذائل عن الكافرين ، أمرت الرسول - صلى الله
عليه وسلم - أن يبلغهم أنهم إذا ما اتهموا عن كفرهم وعنادهم ، فإن الله
- تعالى - سيغفر لهم ما سلف من ذنوبهم . أما إذا استمروا في طغيانهم
وجحودهم ، فستدور الدائرة عليهم .

قال - تعالى - : : وإفيمكربك الذين كفروا ليشبكوك أو يقتلوك
أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين (٣٠)

وإذا أتى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين (٣١) وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٣٢) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) .

(و) وبعد أن افتتحت السورة الكريمة بالحديث المجمل عن الغنائم وسأقت في أعقابه ما سأقت من توجيه وإرشاد وترغيب وترهيب .

بعد كل ذلك عادت السورة إلى الحديث عن الغنائم ، ففصلت ما أجهلته في مقامها ، وذكرت المؤمنين بنعم أخرى منحهم الله إياها في بدر .

ومن ذلك : أنه - سبحانه - هيا لهم المكان المناسب لقتال أعدائهم ، وجعل اللقاء الحاسم بين الفريقين بدون موعد سابق . . . وقلل كل فريق في عين الآخر ليقضى - سبحانه - قضاءه النافذ . . .

قال - تعالى - : « واعدوا أنما غنمتم من شيء . فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » إن كنتم آمنتم بالله وما على أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير (٤١) إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٤٢) .

(ر) ثم يأتي بعد ذلك النداء السادس والآخر للمؤمنين ، فيأمرهم

— سبحانه — فيه بالثبات عند لقائهم لأعدائهم ، وبالإكثار من ذكره ،
جواباً لطلبه التامة له ورسوله ، وبالإبتعاد عن التنازع والاختلاف .

ثم ينهم من التشبه بالمرائين ، والمتكبرين ، والمغرورين ، الذين زين
لهم الشيطان سوء أعمالهم . . . ولكنه عندما تراهي الجحمان نكص على عقبيه
والذين سيكون مصيرهم الهزيمة في الدنيا ، والعذاب المهيمن في الآخرة
بسبب كفرهم بآيات الله ، وإيثارهم الضلالة على الهداية .

قال — تعالى — : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ،
واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (٤٥) وأطيعوا الله ورسوله
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين (٤٦)
ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون
عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط (٤٧) وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم
وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان
نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف
الله ، والله شديد العقاب (٤٨) . .

(ح) ثم تمضي السورة الكريمة في تصوير ذنابل الكافرين ، وفي تشجيع
المؤمنين على قتالهم ، وإعداد العدة لدحرم وتشريدهم ماداموا مستمرين
على كفرهم وخيانتهم . . . ، فإن جنحو السلم . ومالوا إلى المصالحة والمهادنة
مقابل منهم ذلك — أيها الرسول الكريم — ، واحترس من خداعهم وغدرهم ،
وحرص أنباك على قتالهم بصبر وجلد .

قال — تعالى — : إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم
لا يؤمنون (٥٥) الذين طاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة

وَمَ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَمُذَرِّجُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ (٥٧) وَإِنَّمَا تَخَافَنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوَّاسِينَ (٥٨) وَلَا يُحِبُّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا لِأَنفُسِهِمْ
لَا يَمْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ
يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَظْلُمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (٦١) . .

(ط) ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن أسرى غزوة بدر من المشركين
فبينت ما كان يجب على الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين في شأنهم ،
وعاتبهم لإبشارهم أخذ الفداء على ما عهد الله من ثواب عظيم ، وأباح لهم
أن يأكلوا مما غنموه ، فإنه حلال طيب ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم -
أن يدعو الأمرى إلى الدين الحق ، وأن يخبرهم بأنهم متى آمنوا ظفروا
بخيرى الدنيا والآخرة .. تأمل معى - أخى القارىء - هذه الآيات الكريمة
التي ساقها السورة فى هذا المعنى .

• ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى يشن فى الأرض ،
تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (٦٧) -
لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٦٨)
فكفروا بما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم (٦٩)
يا أيها النبي قل إن فى أيديكم من الأمرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً

يؤتاكم خيراً مما أخذ منكم ويفقر لكم والله غفور رحيم (٧٠)
وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم
حكيم (٧١) . .

(ي) وإذا كانت السورة قد تحدثت في أوائلها عن صفات المؤمنين . .
للصادقين ، وعن حال الذين كرموا الخروج القتال في بدر . . فإنها قد
تحدثت في ختامها - أيضاً - عن أصناف المؤمنين . . فحدث المهاجرين
السابقين ، ومدحت الأنصار الذين آووا ونصروا ، لأنهم قد اشتركوا جميعاً
في بذل أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله . . ثم ينفذ ما يجب عليهم
نحو غيرهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا ، بل ظلوا في أرض الشرك .
ثم مدحت المؤمنين الذين تأخرت هجرتهم عن صلاح الحديبية - وإن كانوا أقل
في الدرجات من المهاجرين السابقين - .

قال - تعالى - : : إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم
 وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء
 بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى
 يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم
 يينسكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير (٧٢) والذين كفروا
 بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد
 كبير (٧٣) والذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله والذين آووا
 ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم (٧٤)
 والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم .

ولولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم (٧٥) . .

٨ - هذا عرض مجمل لما اشتملت عليه سورة الأنفال من توجيهاً حسامية ، وآداب عالية ، وتشريعات حكيمة . . .

ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أبرزها :
حائلي :

(أ) تربية المؤمنين على العقيدة السليمة ، وعلى الطاعة لله ورسوله ، وإصلاح ذات بينهم ، والشباب في وجه أعدائهم ، والإكثار من التقرب إلى خالقهم ، والمداومة على مراقبته وخشيته وشكره ، فهو الذي هدانا للإيمان ، وهو الذي آوأم وأيدم بنصره وورزقهم من الطيبات . . بعد أن كانوا ضالين ومستضعفين في الأرض . : ولقد أفاضت السورة في غرس هذه المعاني في نفوس المؤمنين لأنها نزلت كما سبق أن بينا -- في أعقاب اللقاء الأول بينهم وبين أعدائهم -- فمكان من المناسب أن تكرر غرس هذه المعاني في القلوب حتى تستمر على طاعة الله ورسوله ، تلك الطاعة التي من ثمارها الظفر الدائم والخير الباقي . .

(ب) تذكير المؤمنين بما عليه أعداؤهم من جحود وعناد ، وبما كان منهم من مكر برسلهم - صلى الله عليه وسلم - أو من استهزاءهم بدينهم وقرآنهم ومن عداوة شديدة للحق وأهله ، ومن صفات ذميمة جعلتهم أهلاً لاستحواقة الشيطان عليهم . . . وهذا التذكير قد تكرر كثيراً في سورتنا هذه ، لكي يستمر المؤمنون على حسن استعدادهم ، ولكي لا تنسىهم نشوة النصر في بدر ما يضمرة لهم أعداؤهم من كراهية وبغضاء ، وما يبيتونه لهم من سوء وشر .

(ج) إرشاد المؤمنين إلى المنهاج الذي يجب أن يسيروا عليه في حالتهم حربهم وسلمهم ، لأنهم متى ساروا عليه حالهم النصر ، وصاحبهم التوفيق في حالة الحرب : أمرتهم السورة الكريمة بأن يعدوا لأعدائهم كل

ما يستطيعون من قوة. وأن يبذلوا أموالهم بسخاء من أجل نصرة الحق..
 حوأن يقاتلوا خصومهم بشجاعة وإقدام ، وأن يكثروا من التقرب إلى الله
 بصالح الأقوال والأعمال - خصوصاً في موطن القتال - . وأن يجعلوا
 غايتهم في قتالهم إحقاق الحق وإبطال الباطل ، حتى لا تكون فتنة ويكون
 الدين كله لله . . .

وأن يؤثروا السلم على الحرب متى وجد السبيل إليه ، فإن السلم هو الأصل
 أما الحرب فهي أمر لا يلبأ إليه إلا عند الضرورة التي تقتضيها . . أما في حالة
 سلامهم : فقد أمرتهم السورة الكريمة بالتآخي والتناصر والنواد والتراحم
 والتصالح . . ونبد التنازع والتخاصم والاختلاف والبطر .

كما أمرتهم بتقوى الله وبإيثار ما عنده من ثواب وأجر على الأموال
 والأولاد .

قال - تعالى - : «واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده
 أجر عظيم . .

وهناك موضوعات أخرى تعرضت لها السورة :

كحديثها عن الغنائم ، وعن الأسرى ، وعن المعاهدات ، وعن أحداث
 غزوة بدر ، وعن المشاعر التي تحركت في نفوس بعض المشركين فيها قبل
 أن تبدأ المعركة وخلالها وبعدها .

وقد ساقَت السورة الكريمة كل ذلك بأسلوب يهدي للقلوب ، ويشرح
 الصدور ، ويرشد الناس إلى مواطن عزهم وسعادتهم .

هذا ، وأرى من المناسب - أخى القارىء - أن نختم هذا العرض المجمل
 لسورة بدر - كما سماها ابن عباس - بتخليص لقصة هذه الغزوة لتتسم الجو
 الذي نزلت فيه هذه للسورة ، ولندرك مرامي النصوص فيها . . لأننا نعتقه
 (٢ - الأنفال)

أن مما يعين على فهم الآيات القرآنية فهماً قوياً مستثيراً ، أن يكون القارىء -
أو المفسر لها ملماً بأسباب نزولها وبالحوادث التاريخية التى نزلت فيه ، وبالأحداث
التي لا بدت نزولها . . بجانب إلمامه بمدلولاتها اللغوية والبيانىة . .

قال الإمام ابن هشام عند حديثه عن « غزوة بدر الكبرى » ، (١) .

قال ابن إسحاق : لما سمع رسول الله - ﷺ - بأبى سفيان مقبلاً من الشام فى
عير قريش عظيمه . . فدب المسلمون إليها وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم .
فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فانتدب الناس نخف بعضهم وثقل بعضهم .
وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله - ﷺ - يلقى حرباً .

وكان أبو سفيان - حين ذاك من الحجاز - يتجسس الأخبار ، ويسأل
من لقي من الركبان : تخرفاً على أمر الناس - أى : على أموالهم التى معها فى القافلة -
حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أنه محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك
فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم بن عمرو الخفارى فبعثه إلى مكة ، وأمره
أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لهما فى
أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

فلما وصلها أخذ يصرخ ببطن الوادى . . ويقول يا معشر قريش : اللطيمة
اللطيمة - أى : العير التى تحمل اللطيب والمسكر والثياب . . - أموالكم مع
أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث
فتجهز الناس سراهاً وقالوا : أياظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن
الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين ، إما خارج وإما
باعث مكانه رجلاً ، وأوعيت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد .

- خرجوا بالقيان والدقاق يغنين فى كل منهل ، وينحرون الجزر ،
وهم تستعمائة وخمسون مقاتلاً ، وقادوا مائة فرس ، عليها مائة دارع سوى
درع المشاة ، وكانت إبلهم سبعمائة بعير .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ومعها شرحها للإمام السهيلي ج ١ ص ٩١ -
طبعة دار الكتب الحديث بالقاهرة .

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه : واستعمل ابن مكتوم على الصلاة بالناس ، واستعمل على المدينة أبا لبابة . . ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير .
وكان لاهل المسلمين يومئذ سبعين بغيراً ، فاعتقبوها أى كانوا يركبونها بالتعاقب ، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ .

وسلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة . . ثم نزل قريباً من بدر . . وأتى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال رسول الله - ﷺ - أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك لأنهم عدد الناس . وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلى ديارنا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبائنا ونساءنا .

فلما قال رسول الله - ﷺ - ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموائمتنا ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخاف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، وإننا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، ففرح - رسول الله - ﷺ - بقول سعد . .

ثم قال : سمعوا وأبشروا ، فإن الله — تعالى — قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

قال ابن إسحاق : ثم ركب رسول الله — ﷺ — ومعه أبو بكر فسارا حتى وقفا على شيخ من العرب ، فسأله الرسول — ﷺ — عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني عن أنفسكما ؟ فقال رسول الله — ﷺ — إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذلك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به المسلمون .

وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قريش . فلما فرغ من خبره قال : عن أنفسكما ؟ فقال رسول الله — ﷺ — نحن من ماء ، ثم انصرف عنه .

ثم رجع رسول الله — ﷺ — إلى أصحابه فلما أمسى أرسل بعضهم إلى ماء بدر يلتهمون الخبز له . . فأصابوا ساقين لقريش فأنوا بهما . . . فقال لهما النبي — صلى الله عليه وسلم — أخبراني عن قريش . قالوا : هم والله وراء الكتيب الذي ترى بالعنوة القصوى .

فقال لهما : كم القوم ؟ قالوا كثير قال : ما عددهم ؟ قالوا لا ندري قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً نسمأ ويوماً عسراً . فقال القوم فيما بين التسعمائة والالف ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : هبة وشيبة ابنا ربيعة ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف . . فأقبل رسول الله — ﷺ — على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها . . قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجحها الله فارجموها . فقال أبو جهل : والله لا فرجع حتى فرد ماء بدر ، فنقم عليه

ثلاثة ، ننحر الجوز ، ونطم الطعام ، وبسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وقال الأخنس بن شريق انى زهرة ، يا بنى زهرة قد نجى الله لكم أمم والكم فارجموا فرجموا فلم يشهد غزوة بدر زهرى واحداً . ومضت قريش حتى زلوا بالعدرة القصوى من الوادى . . . وبعت الله السماء بالماء فأصاب المسطور منه ما بلدهم الأرض ولم يمنهم من المسير ، وأصاب قريشا منه ما لم يقدر راعى أن يرتحلوا معه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم — يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء ماء نزل به . . .

فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله ؟ أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟

فقال رسول الله ﷺ : — بل هو الرأى والمكيدة والحرب .

فقال الحباب يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نتور ما وراءه من القلب — أى : ثم نغطى ما خلفها من الآبار — ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : لقد أشركت بالرأى ، ثم نهض ومعه الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فعمرت وبني حوضاً على القلب الذى نزل عليه فى الماء . ثم قال سعد بن معاذ يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحققت بمن ورائنا . فقد تخلف عنك أقوام — يا بنى الله ما نحن بأشد لك حياء منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ودعاه به بخير ، ثم بنى رسول الله عريشاً فصار فيه . . .

ثم ارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما رأها رسول الله - ﷺ -
قادمة من الكتيب إلى الوادي قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ،
تحادك و - كذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أحنيهم للغداة . .
ثم أرسلت قريش حمير بن وهب الجهمي فقالوا له : احذر لنا أصحاب
محمد ، فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : هم ثلاث مائة
رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا . .

ولقد رأيت - يامعشر قريش - للبلايا تحمل المنايا ، فواضح يثرب تحمل
الموت النافع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن
يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أهدأدم فما خير
العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة فقال :
يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى أن تفعل شيئا
تذكر به بخير إلى آخر الدهر ؟ فقال عتبة : وما ذاك يا حكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي . . .
قال عتبة : قد فعلت . . ثم قام عتبة خطيبا في الناس فقال :

يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ،
والله لن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه . قتل
ابن عمه أو ابن خاله . . فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب ؛
فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه
ما تريدون . .

ولمخ كلام عتبة أبا جهل فسيه . . ، ثم بعث أبو جهل إلى ابن الحضرمي
فقال له : هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت نارك بعينك ،
فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك - أي : فقم فاطلب من الناس الوفاء بالعهود
والأخذ بشار أخيك .

فقام أبى الحضرمي فاكشف ثم صرخ : واحمره ، واعمره ، فحميت الحرب ، واشتد أمر الناس ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل للرأى الذى دما عتبة الناس إليه . .

قال ابن إسحاق : ثم خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان عرسا من الخلق - فقال : أعاهد الله لأشرب من حوضهم أو لأهد منه ، أو لأموتن دونه . فلما دنا منه خرج إليه حمزة بن عبد المطلب . فلما التقيا ضربه حمزة فأطعن قدمه بنصف ساقه - أى . أطارها - وهو فوق الحوض ، فوقع على ظهره فتدخبت رجله دما نحو أصحابه . ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، فضربه حمزة حتى قتله فى الحوض . .

ثم خرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ... فتأدى يا محمد : أخرج إلينا أكفأنا من قومنا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قم يا عبيدة وقم يا حمزة وقم يا علي . . . أما حمزة فلم يعمل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم يعمل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاما أثبت صاحبه - أى : جرحه جرحا شديدا لا يملك معه الحركة - وكر حمزة . وعلى بأسيا فهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا عبيدة لحازاه إلى أصحابه . قال ابن إسحاق : ثم تواحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله الناس أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكشفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ، . . .

ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر الصديق . . وأخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - يناشد ربه ويقول فيم يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . وأبو بكر يقول : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجوا لك بما وعدك . .

ثم خفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلفه وهو في العريش . ثم

انتبه فقال : « أبشريا أبا بكر ، أذاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بضان فرسه يقوده على ثناباة النقع » - أى الغبار .

وكان قد رمى مہجج مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل ، فكان أول قتيل من المسلمين .

ثم رمى حارثة بن سراقة وهو يشرب من الخوض بسهم فقتل . .
ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس فخرضهم وقال :
« والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محسبا ، قبل أن
غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . .

ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ حفنة من الحصياء فاستقبل
قريشا بها ، ثم نفخهم بها وأمر أصحابه فقال : « شدوا » فكانت الهزيمة فقتل
الله - تعالى - من قتل من صناديد قریش ، وأسر من أسر من أشرافهم . .
فلما وضع القوم أيديهم بأسرون ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله -
ﷺ - متوشحا بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله . يخافون
عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله - ﷺ - في وجه سعد الكراهية
لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والله إنك
باسعد تذكره ما يصنع القوم » ،

فقال سعد : أجل والله يا رسول الله ؟ كانت هذه أول موقعة أوقعها الله
بأهل الشرك ، فكان الإنحان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال . . .
ثم قال الرسول الله - ﷺ - لأصحابه يؤمئذ : « إني قد عرفت
أن رجلا من بنى هاشم غيرهم قد أخرجوا كرها ، حاجة لهم بقتلنا ،
فن لقي منهم - كم أحدا من بنى هاشم فلا يقاتلوه ولا يقاتلوا »
قال ابن إسحاق : - وبعد انتهاء المعركة - أمر رسول الله - ﷺ -
بالقتل من المشركين أن يطرحوا في القليب فلما طرحوا وقف عليهم فقال . .

« بش العشرة كنتم لنبيكم - يا أهل للقلب - لقد كذبتموني وصدقني الناس ،
وأخبر جتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . . »

ثم قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي
حقاً ، فقال المسلمون : يا رسول الله ! أننادى قوماً قد جيفوا ؟

فقال - ﷺ - : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم
لا يستطيعون أن يجيئوني . »

ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر بما في العسكر مما جمع الناس
لجمع ، فاختلف فيه المسلمون ، فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين كانوا
يقاثلون العدو . . والله لولا نحن ما أصبتموه . .

ثم بعث رسول الله - ﷺ - عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة
ليبشرا أهل المدينة بنصر الله لهم على المشركين .

ثم فرق الرسول - ﷺ - الأسرى من المشركين بين أصحابه
وقال لهم :

« استوصوا بالأسارى خيراً ، . »

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم مكة بهاب قريش الحنيسان بن عبد الله
الخراعي فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال : قتل عتبة ، وشيبة ، وأبو الحكم بن
هشام ، وأمية بن خلف . . فلما جعل يعدد أشراف قريش الذين قتلوا ،
قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى
فقالوا له : ما فعل صفوان بن أمية ؟ فقال : ما هو ذاك جالساً في الحجر ،
وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلوا . .

ولما قدم أبو سفيان بن الحارث قال له أبو لوط : هلم إلى ، فعندك لعمري
الحجر ! ! ! جلس إليه والناس قيام عليه فقال له أبو لوط : يا بن أحمى أحمى
كيف كان أمر الناس ؟

فقال أبو صفيان: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فنحنهم أكتافنا يقدوننا
كيف شاؤوا ، وبأمر ونا كيف شاؤا . . .

أما بعد : فهذا ملخص لغزوة بدر سقناه قبل البدء في التفسير التحليل لسورة
الأنفال ، وقصدنا من ذكر هذا الملخص لهذه الغزوة الخامسة : أن ننسجم الجزء
الذي نزلت فيه السورة - كما سبق أن أشرنا - وأن نستعين به على فهم الآيات
فهما واضحا مستنيراً . . .

لأن سورة الأنفال هي سورة بدر كما سماها ابن عباس - رضي الله عنه -
وفي ختام هذا التعريف بسورة الأنفال ، نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا لتفسير
آياتها تفسيراً واضحاً مقبولاً ، بعيداً عن الانحراف . محرراً من لغو القول
وباطله . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَسُولِهِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

لعل من الخير قبل أن نتكلم في تفسير هذه الآيات الكريمة أن نذكر بعض الروايات التي وردت في سبب نزولها ، فإن معرفة سبب النزول يعين على الفهم السليم -
قال الإمام ابن كثير - ما ملخصه - روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشهدت معه بدرًا فالتقى الغاس ، فهزم الله - تعالى - العدو ، فأنطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون . وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدثت طائفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكي لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض : قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال للذين أجمعوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لستم بأحق بها منا . نحن أجمعنا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مخافة أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به -
فقلت : يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول . . . فقصتها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين .

وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا : فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغائم وجاءوا يطلبون الذي جعل لهم . فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا ، يا رسول الله ، لو أنكشفتم لثبتم إلينا . فتنازعوا ، فأرسل الله - تعالى - : يا رسول الله ، إنك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول . . . وقال الثوري ، عن الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا ، فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال يا رسول الله صلى الله عليك - أنت وعدتنا - فقام سعد بن عباد فقال : يا رسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قلنا هذا المقام يحافظه عليك مخافة أن يأتوك من وراءك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : يا رسول الله ، إنك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن سليمان بن موهب عن مكحول عن أبي أمامة قال : سألت عيادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ففقهه بين المسلمين عن بواء - أي : هلى السواء (١) - . هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآيات ، ومنها يتبين لنا أن نزاعاً حدث بين بعض الصحابة الذين اشتروا في غزوة بدر ، حول الغنائم التي ظفروا بها من هذه الغزوة ، فأرسل الله - تعالى - هذه الآيات لبيان حكمه فيها .

والضمير في قوله يا رسول الله ، يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتروا في غزوة بدر ، وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأن السورة

نزلت في هذه الغزوة ، ولأن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم الذين يهتمهم حكمها ، ويعينهم العلم بكيفية قسمتها .

قال الإمام الرازي - ما ملخصه - : فإن قيل من هم الذين سألوا ؟ فالجواب : إن قوله « يسألونك عن الأنفال » إخبار عن من يسبق ذكرهم ، وحسن ذلك بهما ، لأنه في حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً معيناً فانصرف اللفظ إليهم . ولا شك أنهم كانوا أقواماً لهم تعلق بالغنائم والأنفال ، وهم أقوام من الصحابة اشتركوا في غزوة بدر (١) .

والأنفال جمع نفل - بفتح النون والفاء ، كسبب وأسباب - وهو في أصل اللغة من النفل - بفتح فسكون - أى : الزيادة ، ولذا قيل للتطوع نافلة ، لأنه زيادة عن الأصل وهو الفرض وقيل لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال - تعالى - : « وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة (٢) » .

قال الألوسي : ثم صار النفل حقيقة في العطية ، لأنها لكونها تبرعاً غير لازم كان زيادة ، ويسمى به الغنيمة أيضاً وما يشترطه الإمام الغزالي زيادة على سهمه لرأى يراه سواء أكان لشخص معين أو لغير معين ، وجعلوا من ذلك ما يريد به الإمام من صدره : أثر محمود في الحرب كبراز وحسن إقدام ، وغيرهما . وإطلاقة على الغنيمة ، باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة عن الله بها هذه الأمة ، أو باعتبار أنها منحة من الله - تعالى - من غير وجوب .

ثم قال : ومن الناس من فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص . فقيل : الغنيمة ما حصل مستغنياً سواء أكان بتعب أو بغير تعب ، قبل الظفر أو بعده ، والنفل ما كان قبلاً الظفر أو ما كان بغير قتل وهو النفي . والمراد بالأفعال هنا الغنائم كما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وطائفة من الصحابة وغيرهم (٣) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١١٣ ، طبعة عبد الرحمن محمد

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٢ .

١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م

(٣) تفسير الألوسي بتصرف وتلخيص ج ٩ ص ١٦ طبعة منير الدمشقي

هذا ، وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الأنفال - أى الغنائم - إنما هو حكمها وعن المستحق لها ، فيكون المعنى .

يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ؟ ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه - سبحانه - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو الذى يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها . وفى هذا الإجابة على سؤالهم تربية حكيمة لهم - وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم حتى يجهدوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله . أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التى تأتيتهم من وراء جهادهم فعليهم ألا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم ، وأن يفوضوا الأمر فيها لله ورسوله عن إذعان وتسلم . وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن المراد بالأنفال ما شرط للغزى زيادة على سهمه ، وأن حرف عن ، زائد ، أو هو بمعنى من ، فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يا محمد إعطاءهم الأنفال التى وعدتهم بها زيادة على سهامهم فيها . قل لهم : الأنفال لله ورسوله .

والذى زعم أن رأى الأول أرجح وذلك لأمور منها :

١ - بعض الروايات التى وردت فى أسباب نزول هذه الآية تؤيد تأييداً صريحاً ، ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه من عبادة بن الصامت أنه قال : « فبينا معشر أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزله الله من أيدينا . فجعله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقسمه بين المسلمين عن بواه . »

٢ - ولأن غزوة بدر كانت أول غزوة لها شأنها وأثرها بين المسلمين والكافرين ، وكانت غنائمها الضخمة التى ظفر بها المؤمنون من المشركين ، جافزاً لسؤال بعض المؤمنين رسولهم - صلى الله عليه وسلم - عن حكمها وعن المستحق لها .

٣ - ولأن الجواب عن السؤال بقوله - تعالى - : « قل الأنفال لله والرسول »

يؤيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن مصرفها ، إذ أن هذا الجواب يفيد أن اختصاص أمرها وحكمها مرجعه إلى الله ورسوله دون تدخل أحد سواهما .

ولو كان السؤال للاستعطاء لما كان هذا جواباً له ، فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالله والرسول لا يقتضي إعطاءه إياهم بل يحققه ، لأنهم إنما يسألونه بموجب شرطه لهم الصادر عنه بإذن الله - تعالى - لا بحكم سبق أيديهم إليه أو نحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور ، (١) .

٤ - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : فأنفقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ... الخ ، يؤيد أن السؤال عن حكم الأنفال ومصرفها بعد أن تنازعوا في شأنها ، فهو - سبحانه - ينهاهم عن هذا التنازع ، ويأمرهم بأن يصوروا أنفسهم عن كل ما يغضب الله ... ولو كان السؤال للاستعطاء - بناء على ما شرطه الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لبعضهم زيادة على سهامهم - لما كان هناك محذور يجب اتقاؤه ، لأنهم لم يطلبوا من الرسول إلا ما وعدهم به وهذا لا محذور فيه .

٥ - ولأن الآية الكريمة بمنطوقها الواضح وبتركيبها البليغ ، وتوجيهها السامي ، تفيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن المستحق لها . . . أما القول بأن السؤال سؤال استعطاء وأن من زائدة أو بمعنى من فهو مكلف لا ضرورة إليه .

والمعنى الواضح الجلي للآية الكريمة - كما سبق أن بينا - : يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ، ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ورسوله يقسمها بحسب حكم الله فيها ، فهو - سبحانه - العليم بمصالح عباده ، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما وجه الجمع بين ذكر الله والرسول

في قوله : قل الأنفال لله والرسول ؟

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١٦١

قلت : معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على حائقتضيه حكمته ، ويمثل للرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفروضاً إلى رأى أحد ، والمراد : أن الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواشى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقتاعهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والنصاف ، . . . (١) .

وقوله : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » ، حض لهم على تقوى الله وامثال أمره ، وإصلاح ذات بينهم ، وتحذير لهم من الوقوع فى المعاصى والنزاع والخلاف . وكلمة « ذات » بمعنى حقيقة الشئ ونفسه ، ولا تستعمل إلا مضافة إلى الظاهر ، كذات الصدور ، وذات الشوكة .

وكلمة « بينكم » من البين ، وهو مصدر بأن يبين بيناً بمعنى بعد ، ويطلق حل الاتصال والفراق ، أى : على الضدين ، ومنه قول الشاعر :

فواة لولا البين لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حس للبين آلف
والمراد به فى الآية الاتصال .

أى : فاتقوا الله — أيها المؤمنون — ، وأصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال والصفة التى بينكم والتى تربط بعضهم ببعض وهى رابطته الإسلام . وإصلاحها يكون بما يقتضيه كمال الإيمان من المودة والمصافاة ، وترك الاختلاف والتنازع ، والتسك بفضيلة الأيثار . وكلمة « ذات » ، على هذا المعنى مفعول به .

ومنهم من يرى أن كلمة « ذات » ، بمعنى صاحبة ، وأنها صفة لمفعول محذوف ، فيكون المعنى : فاتقوا الله وأصلحوا أحوال ذات بينكم . وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : ما حقيقة قوله : « ذات بينكم » .

قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومودة واتفاق . كقوله : بذلت الصدور ، وهى مضمراتها .

ولما كانت أحوال ملازمة للبين قبل لها : ذلت البين ، كقولهم : أسقنى ذا إمائك ، يريدون ما فى الإماء من الشراب . . . (١) .

وقوله : وأطيعوا الله ورسوله ، معطوف على ما قبله ، وهو قوله : فأتقوا الله . .

أى : فأتقوا الله - أيها المؤمنون - فى كل أفعالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة ومودة ، وأطيعوا الله ورسوله فى حكمه الذى قضاء فى الانتقال وفى غيرها ، من كل أمر ونهى ، وقضاء وحكم . . .

وقد كرر - سبحانه - الاسم الجليل فى هذه الآية ثلاث مرات ، اتقية المهابة فى القلوب ، وتعليل الحكم حتى تقبله النفوس بإذعان وتسلیم . وذكر - سبحانه - رسوله إمامه مرتين فى هذه الآية ، لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإبذان بأن طاعته - ﷺ - طاعة لله - تعالى - ، ومخالفته مخالفة لأمر الله - تعالى - . قال - سبحانه - : من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، (٢) .

ووسط - سبحانه - الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية بالإصلاح ، وإيندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة .

وقوله : . إن كنتم مؤمنين ، متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة ، وهى : التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٩٥

(٢) سورة النساء . الآية ٨٠

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . أى : أن كنتم مؤمنين إيماناً
حقاً فامثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة .

قال الألوسى : قوله « إن كنتم مؤمنين » جوابه محذوف ثقة بدلالة
المذكور عليه ، أو هو الجواب على الخلاف المشهور . وأياً ما كان فالمراد
بيان ترتيب ما ذكر عليه لا التشكيك فى إيمانهم ، وهو يكفى فى التعليق بالشرط .
والمراد بالإيمان : التصديق . ولا خفاء فى اقتضائه ما ذكر . على معنى
أنه من شأنه ذلك لا أنه لازم له حقيقة .

وقد يراد بالإيمان الإيمان الكامل والأعمال شرط فيه أو شرط . فالمعنى :
إن كنتم كاملي الإيمان ، فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة :
الاتقاء ، والإصلاح وإطاعة الله - تعالى - .

ويؤيد إرادة الكمال قوله - سبحانه - بعد ذلك « إنما المؤمنون ... » .
إذ المراد به قطعاً الكاملون فى الإيمان وإلا لم يصح الحصر ... (١)

وعلى أية حال فى هذا التذييل تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على الامتثال
والطاعة ، ودعوة لهم إلى أن يكون إيمانهم إيماناً صحيحاً راستخاء ، متفقاً مع كل
ما جاء به رسولهم - ﷺ - من هدايات وإرشادات ، ومتسامياً
عن كل ما يبخش صفاء ونقاء من معصيات ومهمات . .

ثم وصف - سبحانه - المؤمنين الصادقين بخمس صفات ، وبشرهم بأعلى
الدرجات ، فقال فى بيان صفتهم الأولى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر
الله وجلت قلوبهم ... » ، فالجلة الكريمة مستأنفة وهى مسوقة لبيان أحوال
المؤمنين الذين هم أهل لرضا الله وحسن ثوابه ، حتى يتأسى بهم غيرهم .
وقوله « وجلت » من الوجل وهو استشعار الخوف . يقال : وجل
يوجل وجلا فهو وجل ، إذا خاف وفرع .

والمراد بذكر الله : ذكر صفاته الجليلة ، وقدرته النافذة ، ورحمته الواسعة ، وعقابه الشديد ، وعلمه المحيط بكل شيء ، وما يستتبع ذلك من حساب وثواب وعقاب والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر اسم الله وذكروا صفاته أمامهم ، خافت قلوبهم وفزعوا استعظاماً لجلاله ، وتنبها من سلطانه ، وحذروا من عقابه . ورغبة في ثوابه . وذلك اقوة لإيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وشدة مراقبتهم لله - عز وجل - ، ووقوفهم عند أمره ونهيه . .

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من صيغة القصر وهي : إنما ، للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم ، أما غيرهم ممن لم تتوفر فيه هذه الصفات ، فأمره غير أمرهم ، وجرازه غير جرائهم . قال الفخر الرازي : فإن قيل : إنه - تعالى - قال همنا : وجعل قلوبهم وقال في آية أخرى : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (١) . . . فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : الاطمئنان : إنما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل : إنما يكون من خوف العقوبة ولا منافاة بين هاتين الحالتين . بل نقوله : هذان الوصفان اجتماعاً في آية واحدة وهي قوله - تعالى - : والله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله (٢) . . . والمعنى تقشع الجلود من خوف عذاب الله . ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله ، (٣) .

والصفة الثانية من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين عبر عنها - سبحانه - بقوله : وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، .

(١) سورة الرعد . الآية ٢٨ (٢) سورة الزمر . الآية ٣٢

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٥٣ ص ١١٨

أى أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله أى :
حججه وهى القرآن ، زادتهم إيماناً ، أى : زادتهم تلاوتها قوة فى التصديق ،
وشدة فى الإذعان ، ورسوخاً فى اليقين ، ونشاطاً فى الأعمال الصالحة ،
وسعة فى العلم والمعرفة .

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول فى قوله ، ذكر الله ، رد تلمت
عليهم آياته ، ، للإيدان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا إيماناً عند
يسمعون من غيرهم آيات الله . . فإنهم يكونون أشد خوقاً وفرحاً عند
ذكرهم لله وعند تلاوتهم لآياته بالسنتهم وقلوبهم .

فالمقصود من هذه الصيغة مدحهم . والثناء عليهم ، وبيان الأثر الطيب
الذى يترتب على ذكر الله وعلى تلاوة آياته .

والصفة الثالثة من صفاتهم قوله - تعالى - : وعلى ربهم يتوكلون ، .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أيضاً أنهم يعتمدون على ربهم الذى
خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ، فيفوضون أمورهم كلها إليه وحده
- سبحانه - لا إلى أحد سواه ، كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : أى : أنهم
لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بحبائه ، ولا
يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان
وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك لإشريك له ، ولا معقب لحكمه
وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير .

• التوكل على الله جماع الإيمان ، (١)

ومن الواضح عند ذوى العقول السليمة أن التوكل على الله لا يتناقض الأخذ
بالأسباب التي شرعها - سبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب التي شرعها الله
وأمر بها لبلوغ الغايات ، لدليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن طاعته -
سبحانه - فيها شرعه وفيما أمر به .

وليس من الإيمان ولا من العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظر الإنسان
ثمراً بدون غرس ، أو شبعاً بدون أكل ، أو نجاحاً بدون جهد ، أو ثواباً
بدون عمل صالح . .

إنما المؤمن العاقل المتوكل على الله ، هو الذي يباشر الأسباب التي
شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة . . ثم بعد ذلك يترك النتائج له
- سبحانه - يسيرها كيف يشاء ، وحسبما يريد . . .

أما الصفتان الرابعة والخامسة من صفات هؤلاء المؤمنين فهما قوله - تعالى -
« الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » .

والمراد بإقامة الصلاة : أداؤها في مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها
وآدابها وخشوعها - من أقام الشيء - إقامة إذا قومه وأزال عوجه لأن الشأن
في صلاة المؤمنين أن تكون : [حساساً حقيقياً بالوقوف بين يدي الله ،
واقطعاً تاماً لمناجاته ، وتملاً حياً لجلاله وكبريائه ، واستغراقاً كاملاً
في دعائه .

والمراد بقوله : « ينفقون » يخرجون ويبدلون ، من الإنفاق وهو
إخراج المال وبذله وصرفه . يقال : نفق - كفرح ونصر - بمعنى : فقد
وفنى أو قل . وأنفق ماله : أى : أنفده ، والهمزة للتعدي . وأصل المادة
يبدل على الخروج والذهاب .

والجمل للكرامة في عمل رفع صفة للموصول في الآية السابقة أو بدله
منه أو بيان له .

والمعنى . أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يؤدون الصلاة في مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وصفاتها وآدابها وخشوعها . . . وأنهم يفلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة نفس ، وسخاء يد ، استجابة لتعاليم دينهم .
فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف هؤلاء المؤمنين بخمس صفات :
الأولى والثانية والثالثة منها ترجع إلى العبادات القلبية التي تدل على شدة خشيتهم من ربهم ، وقوة تأثيرهم بآيات خالقهم ، واعتمادهم عليه - سبحانه - وحده لا على أحد سواه .

والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية ، وهى إقامة الصلاة بإخلاص وخشوع .

أما الصفة الخامسة فترجع إلى العبادات المالية ، وهى إنفاق المال في سبيل الله ولاشك أن هذه الصفات متى تمتكنت فى النفس ، كان صاحبها أهلاً لمحبة الله ، ورضوانه ، ولذا مدح - سبحانه - أصحاب هذه الصفات ، وبين ما أهداه لهم من ثواب جليل فقال : « أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم المؤمنون إيماناً حقا « لهم درجات ، عالية ، ومكانة سامية » عند ربهم ، ولهم مغفرة شاملة لما فرط منهم من ذنوب ، ولهم « رزق كريم » فى الجنة ، يجعلهم يحيون فيها حياة طيبة « لا لغو فيها ولا تأثيم » .

وقوله « حقا » منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون إيماناً حقا .

والذين فى قواه « درجات » ، للتعظيم والتهويل . أى : لهم درجات رفيعة ، ومنازل عظيمة ، وفى وصف هذه الدرجات بأنها « عند ربهم » ، مزيد لتعريف لهم ، ولطف بهم ، وإيدان بأن ما وعدهم به ميقن الوقوع ، لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده - سبحانه - .

وفي وصف الرزق الذي أحده لهم بالكرم ، زيادة في إدخال السرور على قلوبهم ؛ لأن لفظ الكريم يصف به العرب كل شيء حسن في بابه ، بحيث يكون لا قبح ولا شكوى معه .

وبذلك نرى أن أصحاب تلك الصفات الحميدة قد مدحهم الله تعالى - مدحاً عظيماً ، وكافأهم على إيمانهم الحق بالدرجات العالية ، والمغفرة الشاملة ، والرزق الكريم : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . هذا ، وقد استنبط العلماء من تلك الآيات جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - حرص الصحابة على سؤال النبي - صلى الله عليه وسلم - عما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم .

فإن قيل : كيف تأتي الصحابة الذين شهدوا بدرًا - وهم من هم في حفتهم وزهدهم - أن يختلفوا في شأن الغنائم .

فالجواب ، أن بعض الصحابة المشركين في هذه الغزوة هم الذين حدث بينهم الخلاف في شأنها ؛ لأنهم لم يكن لهم عهد سابق بكيفية تقسيمها . أما أكثر الصحابة فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه الغنائم ، بل تركوا أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يضعها كيف يشاء .

وأيضاً فإن هؤلاء الذين حدث بينهم الخلاف في شأن الغنائم ، كان من الدوافع التي دفعتهم إلى هذا الخلاف ، ما فهموه من أن حيازة الغنائم تدل على حسن البلاء ، وشدة القتال في سبيل الله ، فكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بهذا المظهر المشرف وهم في أول لقاء لهم مع أعدائهم .

وعند ما تجاوز هذا الحرص حده ، بأن غطى على ما يجب أن يسود بينهم من سماحة وصفاء . . . نزل القرآن ليربيهم بتربيته الحكيمة ، وليؤديهم بأدبه السامي ، وليخبرهم بحكم الله في شأن هذه الأنفال . . . وبعد أن عرفوا حكم الله في شأنها ، قابله بالرضا والإذعان والتسليم .

٧ - أن القرآن في ترتيبه للحراثة ، لا يلزم سردها على حسب زمن وقوعها ، وإنما يرتبها بأسلوبه الخاص للتحذير على فيه منة حتى حال المخاطبة فلقد افتتحت السورة التي معنا بالحديث عن الغنائم التي غنمها المسلمون في بدر - مع أن ذلك كان بعد انتهاء الغزوة - ليشعر المخاطبين من أول الأمر أن النصر في هذه الغزوة كان للمسلمين ، وأن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله فيها .

وهذا اللون من الافتتاح هو ما يدبر عنه البلاغاء ببراعة الاستهلال . ولقد أفاض بعض العلماء في شرح هذا المعنى فقال ما ملخصه .

وقد بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم في قسمتها وسؤالهم عنها ، فسألت في ذلك أربع آيات . من : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله . . إلى قوله - « ورزق كريم » .

وقد عالجت هذه الآيات نفوس المؤمنين ، وعملت على تطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المأثرة ، ولاريب أن حب المال والتطلع إلى المأثرة من أكبر أسباب الفشل . ولاهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة ، وإن كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدر ، وقاتل الأعداء .

وقد مررنا من ستة القرآن في ذكر القصص والوقائع أنه لا يصرح لها مرقبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكروها على أنها تاريخ يدين لها الوقت والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتطلبه من الأحكام والحكم .

وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال للمسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذي كوله الله للمؤمنين .

وليس من تربية النفوس أن تبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب

سورة - ٤١ - الانفال

الفرح والفرح أمام وسائل العزة والشرف ، متى وجد لهم بجانب هذا الفرحة ما يدل على مواقف الشرف والكرامة . . .

ولا كذلك يكون الأمر إذا بدت ببيان تشاغلهم في الخروج إلى الغزوة وانظر كيف يكون وقع المطلاع إذا جاء على هذا الوجه ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لسكر هون ... الخ . .

لأريب أنه مطلع شديد الوقع على النفوس ، يصور علاقته المؤمنين بفهم في صورة يأبأها إيمانهم به وامتناعهم لأمره . يصورهم في شقاوة واختلاف مع قائدهم ورسولهم ويصورهم في ثوب الكرامة الشديدة لمعالي الأمور وهز الحياة :

لهذا كله جاء الأسلوب في سرد الوقائع غير مكثرت بمخالفة ترتيبها في الوجود الخارجي ، (١) .

٣ - استدلل جمهور العلماء بقوله - تعالى - ، وإذا نليت عليهم آيات زادتهم إيمانا ، على أن الإيمان يزيد وينقص . .
ومن المفسرين الذين بسطوا القول في هذه المسألة الإمام الألوسي ، فقد قال ما ملخصه :

قوله - تعالى - ، وإذا نليت عليهم آياته ، أي : القرآن ، زادتهم إيمانا أي : تصديقا كما هو المتبادر ، فإن تظاهر الأدلة وتعاقد الحجج مما لا ريب في كونه موجبا لذلك .

وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجهم الخفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وبه أقول . أكثر الظواهر الدالة على ذلك من الكتاب والسنة من غير معارض لها عقلا .

بل قد احتج عليه بعضهم بالعقل - أيضا - وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقتا

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٤٤ لفضيلة الأستاذ العبد بن محمد دشتوت

الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المهمكين في الفسق والمعاصي ، مساويا لإيمان الأنبياء والملائكة ، واللازم باطل فكذا الملزوم .
وقال النووي : إن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظم بقينا وإخلاصا منه في بعضها ، فكذا التصديق والمعرفة يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . واختاره إمام الحرمين ، محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجرم والإذعان ، وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان . فالمصدق إذا أتى بالطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا ، وإنما يتفاوت إذا كان اسما للطاعات المتفاوتة قوة وكثرة .

وذهب جماعة منهم الإمام الرازي إلى أن الخلاف في زيادة الإيمان ونقصانه وعدمهما لفظي ، وهو فرع تفسير الإيمان ، فمن فسره بالتصديق قال : إنه لا يزيد ولا ينقص ، ومن فسره بالأعمال مع التصديق قال : إنه يزيد وينقص ، وعلى هذا قول البخاري . لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو المعنى بما روى عن ابن عمر أنه قال . قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ، قال . نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ، (٢) .

ويبدو لنا أن رأى جمهور العلماء في هذه المسألة ، أولى بالقبول ، لأنه من الواضح أن إيمان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أرسخ وأقوى من إيمان آحاد الناس ، ولأنه كلما تكاثرت الأدلة كان الإيمان أشد رسوخا في النفس واعنى أثرأ في القلب ، فلا تزلزه الشبهات ولا تزعزعه العوارض والفتن .

(١) تفسير القرآن الكريم ج ٤٤ ، لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت

- رحمه الله -

(٢) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١٦٥

ومن أوضح الأدلة على أن الإيمان يقوى بقوة البرهان إلى درجة الإطمئنان،
 حاحكاه الله - تعالى - عن إبراهيم في قوله : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف
 تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن أيطمئن قلبي (١) » .
 فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن مقام الطمأنينة في الإيمان ، يريد على
 ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالاً ، فإن إبراهيم - عليه وسلام - لاشك أنه
 كان مؤمناً عندما سأل ربه هذا السؤال ، وإنما سأل ذلك لينتقل من مرتبة
 علم اليقين إلى مرتبة أعلى : وهي مرتبة عين اليقين . . .

هذا ، وشيبه بهذه الآية في الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان
 قوله - تعالى - : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
 فزادهم إيماناً . . . » (٢)

وقوله - تعالى - : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا
 إيماناً مع إيمانهم . . . » (٣)

وقوله - تعالى - : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أبكم زادته
 هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في
 قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وما توأموهم كافرون ، (٤) » .

وقوله - تعالى - : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله
 ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ، (٥) »
 إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي وردت في هذا المعنى :

٤ - في هذه الآيات الكريمة تربية ربانية للمؤمنين ، وتوجيه لهم إلى
 ما يسعدهم ، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق في إيمانه ، هو الذي يجمع بين
 سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وأن المؤمن متى جمع بين
 هذه الصفات ارتفع إلى أعلا الدرجات ، وأحسن مهلة الإيمان في قلبه . . .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ (٢) سورة آل عمران الآية ١٢٣

(٣) سورة الفتح ، الآية ٤ (٤) سورة التوبة : الآيات ١٢٤ ، ١٢٥

(٥) سورة الأنفال

روى الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسوله
 الله - ﷺ - فقال له : وكيف أصبحت يا حارث ، ؟ قال : أصبحت
 مؤمناً حقاً . فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : انظر ما تقول فإن
 لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ، ؟ فقال الحارث : عرفت نفسي من
 الدنيا فأسهرت ليلي ، وأظلمات نهارى . وكأني أنظر إلى عرش ربي بارداً .
 وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتأوون فيها . وكأني أنظر إلى أهل النار يتهاغون
 فيها . فقال - ﷺ - : يا حارث عرفت فالدم ، ثلاثاً (١)
 ثم أخذت السورة - بعد هذا الافتتاح المشتمل على أروع استهلال وأبلغه
 وأحكمه ... في الحديث عن الغزوة التي كان من ثمارها تلك الأنفال ،
 فاستعرضت بمجمل أحداثها ، وصورت نفوس فريق من المؤمنين الذين
 اشتروا فيها أكل تصوير ، استمع معي - أخى القارىء - بتدبر وتعقل إلى
 قوله - تعالى - :
 كَمَا أَخْرَجَكَ

رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ
 يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
 يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
 غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
 وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الكاف في قوله - تعالى - : كما أخرجك ربك .. بمعنى مثل ، أى : التشبيه ،
 وهى خبر لمبتدأ محذوف هو المذهب ، وما بعدها هو المشبه به ، ووجه التشبه
 مطلق الكرامة ، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين .
 (١) تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٨٦ طبعة عيسى الحلبي .

والمعنى : حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ،
 حثل حال بعضهم في كراهة الخروج للقتال ، مع ما في هذه القسمة والقتال
 من خير وبركة .

ونحن عندما نستعرض أحداث غزوة بدر ، نرى أنه قد حدث فيها أمران
 يدلان على عدم الرضا من فريق من الصحابة ، ثم أعقبهما الرضا والإذعان
 والفسليم لحكم الله ورسوله .

أما الأمر الأول فهو أن فريقاً من الصحابة — وأكثرهم من الشباب —
 كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسوية فيها إجحاف بحقهم ، لأنهم هم الذين
 قاموا بالنصيب الأوفر في القتال ، وأن غيرهم لم يكن له بلاؤهم — كما سبق أن
 بينا في أسباب نزول قوله — تعالى — : **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ..** الخ .

ولكن الرسول — ﷺ — قسم غنائم بدر بين الجميع بالسوية ، كما
 أمره الله — تعالى — .

وكان هذا التقسيم خيراً للمؤمنين ، إذ أصلح الله بينهم ، وردد إلى
 حالة الرضا والصفاء . . .

وأما الأمر الثاني : فهو أن جماعة منهم كرهوا قتال قريش بعد نجاة العير
 التي خرجوا من أجل الحصول عليها . وسبب كراهيتهم لذلك أنهم خرجوا
 بدون استعداد للقتال ، لأنهم حيث العدد ولأنهم حيث العدد . .

ولكنهم استجابوا بعد قليل لما نصحهم به رسولهم — ﷺ — من
 وجوب قتال قريش . .

وكان في هذه الاستجابة نصر الإسلام ، ودحر الطغيان .

قال ابن كثير : روى الحافظ بن مردويه — بسنده — عن أبي أيوب
 الأنصاري قال : قال رسول الله — ﷺ — : **وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ** : «إني أخبرت
 عن هير أبي سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن
 يغنمنا إياها ؟ ، فقلنا نعم » فخرج وخرجنا : فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا

« ما زون في قتال القوم ؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم ، ؟ فقلنا : ما لنا
حطاقة بقتال العدو وإسكتنا أردنا المير . ثم قال : « ما زون في قتال القوم ، ؟
فقال المقداد بن عمرو . إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال بنو إسرائيل
لموسى : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . . . ولكن إذهب
أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . »

وفي رواية أن أبا بكر وعمر وصعد بن معاذ تكلموا بكلام سر لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم - (١) هذا ، وما قررناه قبل ذلك من أن الكاف في
قوله - تعالى - « كما أخرجك ربك . . . » بمعنى مثل ، هو ما ترجحه من بين
أقوال المفسرين التي أوصلها بعضهم إلى عشرين قولاً .

قال الجمل . قوله « كما أخرجك ربك . . . » فيه عشرون وجهاً . أحدها :
أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره : الأتقال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك
ربك . أى : ثبوتاً بالحق كإخراجك من بيتك . يعنى أنه لا مزية في ذلك .
الثاني : أن تقديره وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ، وقد
التفت من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد .

الثالث : تقديره : وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك
أى : كما أن إخراج الله لإياك لا مزية فيه ولا شبهة . . الخ (٢) .

والحق أن معظم الوجوه النحوية التي ذكرها الجمل وغيره من المفسرين
- كإي حية - ان والآلومى - أقول : إن معظم هذه الوجوه يبدو عليها
التكاف ومجانبة الصواب .

ورحم الله صاحب الكشف فقد أعمل أكثر ما ذكره المفسرون فيه
ذلك ، واكتفى بوجهين فقال :

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٧ - بتصرف وتلخيص .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٢٦ . طبعة عيسى الحلبي .

قوله: « كما أخرجك ربك » . فيه وجهان أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيل الغزوة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب .

والثانى : أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله « الأنفال لله والرسول » أى : الأنفال استقرت لله والرسول ، وثبتت ما كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ، (١) والوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما صاحب الكشف هو الذى نميل إليه ، وهو الذى إذا كرناه قبل ذلك بصورة أكثر تفصيلاً .

وأضاف - سبحانه - الإخراج إلى ذاته فقال : « كما أخرجك ربك للإشعار بأن هذا الإخراج كان بوحى منه - سبحانه - وبأنه هو المرام له في هذا الخروج .

والمراد بالبيت في قوله : « من بيتك » مسكنه - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة أو المراد المدينة نفسها ، لأنها مشواه ومستقره ، فهى في اختصاص به كاختصاص البيت بساكنه .

وقوله : « بالحق » متعلق بقوله : « أخرجك » ، والباء للسببية ، أى : أخرجك بسبب نصرته الحق ، وإعلاء كلمة الدين ، وإزهاق باطل المبطلين . ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من مفعول أخرجك وتكون الباء للبابسة ، أى : أخرجك إخراجاً ملتبساً بالحق الذى لا يجر حوله باطل .

قال الألوسى : وقوله : « وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » ، أى للخروج ، إما لعدم الاستعداد للقتال ، أو للميل للغميمة ، أو للنفرة الطبيعية عنه وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار ، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة

والجمل في موضع الحال ، وهي حال مقدرة ؛ لأن الكراهة وقعت
بعد الخروج ، (١) .

والمعنى الاجمالي للآية الكريمة : حال بعض المشركين في بدر في كراهة
حسنة الغنيمة بالسوية بينهم ، مثل حال فريق منهم في كراهة الخروج للقتال ،
مع أنه قد ثبت أن هذه للقسمة وذلك القتال ، كان فيهما من الخير لهم ،
إذ الخير فيما قدره الله وأراد ، لا فيما يظنون .

وقوله - تعالى - : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى
الموت وهم ينظرون » ، حكاية لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال ،
ونصوير معجز لما استبد به من خوف وفزع .

والمراذبة قوله « يجادلونك » ، مجادلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن القتال
وقر لهم له . ما كان خروجنا إلا للعير ، ولو أخبرنا بالقتال لأهددنا العدة له .
والضمير يعود للفريق الذي كان كارهاً للقتال .

والمراد بالحق الذي جادلوا فيه : أمر القتال الذي حضهم الرسول - صلى
الله عليه وسلم - على أن يعدوا أنفسهم له .

وقوله : « بعد ما تبين » ، متعلق : « يجادلون » ، و « ما » ، مصدرية ،
والضمير في الفعل « تبين » ، يعود على الحق .

والمراد بتبينه : إعلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بأنهم سينصرون
على أعدائهم فقد روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبرهم قبل نجاة
العير بأن الله وعده الظفر بإحدى الطائفتين : العير أو النغير ، فلما نجت العير علم
أن الظفر الموعود به إنما هو للنغير ، أي : على المشركين الذين استنفرهم
أبو سفيان للقتال لا على العير ، أي : الأبل الحاملة لأموال المشركين .

والمعنى : يجادلك بعض أصحابك - يا محمد - في الحق ، أى فى أمر القتال بعد ما تبين ، أى ، بعد ما تبين لهم الحق بإخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم ، وأنه لا مفر لهم من لقاء قريش تحقيقاً لوعده الله الذى وعد بإحدى الطائفتين .

وقوله : « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، أى : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، ومجاهد لموجباته . والجملة فى محل نصب على الحالية من الضمير فى قوله : « لساكرهون » . وفى هذه الجملة الكريمة تصوير معجز لما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال يسبب قلة عددهم وعددهم .

وقوله : « بعد ما تبين » ، زيادة فى لومهم ، لأن الجدل فى الحق بعد تبينه أقبح من الجدل فيه قبل ظهوره .

ثم حكي - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين ، مع جزع بعضهم من قتال عدوه وعدوهم ، وإبشارهم العير على النفير فقال : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكونosكم » .

والمراد بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، والخطاب المؤمنين . والمراد بنفير ذات الشوكة : العير ، والمراد بغلات الشوكة : النفير . والشوكة فى الأصل واحدة للشوك وهو النبات الذى له حد ، ثم استعيرت للشدة والحدة ، ومنه قولهم : رجل شائك السلاح أى : شديد قوى . والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن وعدكم الله - تعالى - على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير هىosلكم تظفرون بها ، وتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وأنتم مع ذلك تودون وتتمنون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح . وهو العير .

(م ٤ - الأنفال)

وهير — سبحانه — عن وعده لهم بصيفة المضارع ، بعدكم ، مع أنه
هذا الوعد كان قبل نزول الآية ، لاستحضار صورة الموعود به في الذهن ،
ولمداومة ذكره — سبحانه — على ما وهبهم من نصر وفوز .

ولأنما وعدهم — سبحانه — لإحدى الطائفتين على الإيهام مع أنه كان
يريد إحداهما وهي النفير ، ليستدرجهم إلى الخروج إلى لقاء العدو حتى
يقتصروا عليه ، وبذلك نزول هبة المشركين من قلوب المؤمنين :

وقوله : إحدى ، مفعول ثانٍ ليعد . وقوله : أنها لكم ، بدل احتمال
من : إحدى (مبين لكيفية الوعد .

أى : بعدكم أن إحدى الطائفتين كانت لكم ، ومختصة بكم ، تتسلطون
عليها تسلط الملاك ، وتتصرفون فيها كيفما شئتم .

وقوله : د وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، معطوف على
قوله : د بعدكم ، أى : وعدكم — سبحانه — إحدى الطائفتين بدون تحديد
لإحداهما ، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة العير التى لا قتال فيها يذكر ،
على طائفة النفير التى تحتاج منكم إلى قتال شديد ، وإلى بذل للمهيج والأرواح .
وفى هذه الجملة تعريض بهم ، حيث كرهوا القتال ، وأحبوا المال ،
وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين .

ثم بين لهم — سبحانه — أنهم وإن كانوا يريدون العير ، إلا أنه
— سبحانه — يريد لهم النفير ، ليعلو الحق ، ويذهب الباطل ، فقال : ويريد
الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين .

أى : ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، وأن يحق الحق بكلماته ، أى أن
يظهر الحق ويعلمه بآياته المنزلة على رسوله ، وبقضائه الذى لا يتخاف ، وإن
يستأصل الكافرين ويذلهم ، ويقطع دابرهم : أى آخرهم الذى يدبرهم .

واللهابر : التابع من الخلف . يقال : دبر فلان القوم يدبرهم دبورا ، إذا كان آخرهم في المعى . والمراد أنه سبحانه يريد أن يستأصلهم استئصالا . وقد هلك في غزوة بدر عدد كبير منى صناديد قريش الذين كانوا يحاربون الإسلام ، ويستنهضون بتعاليمه .

قال صاحب الكشف في معنى الآية الكريمة . قوله : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ... » ، يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور ، وأن لا تلقوا ما يرزقكم في أبدانكم وأموالكم ، والله - عز وجل - يرد ممالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة والفوز في الدارين . وعتان ما بين المراد . ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم قلتكم ، وعركم وأدلمهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم ، ونصرتهم عليها فقال : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » . أى : فعل ما فعل من النصرة والظفر بالأعداء « ليحق الحق ، أى : ليثبت الدين الحق دين الإسلام » ويبطل الباطل ، أى : « ويمحق الدين الباطل وهو ما عليه المشركون من كفر وطفیان .

وقوله : « ولو كره المجرمون » ، بيان لنفاذ إرادته - سبحانه - . أى : اقتضت إرادته أن يحز الدين الحق وهو دين الإسلام ، وأن يححق ما-واه ، ولو كره المشركون ذلك ؛ لأن كراهيتهم لا وزن لها ، ولا تعويل عليها . . وبهذا يتبين أنه لا تكرار بين الآيتين السابقتين ، لأن المراد بإحقاق الحق في قوله - تعالى - « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » : إعلاؤه وإظهاره ونصرته من طريق قتال المؤمنين للمشركين . .

والمراد بإحقاق الحق في قوله بعد ذلك في الآية الثانية، ليحق الحق ويبطل الباطل، : تثبيت دين الإسلام وتقويته وإظهار شريعته، وعحق دين الكفر. فكان ما اشتملت عليه الآية الأولى هو الوسيلة والسبب وما اشتملت عليه الآية الثانية هو المقصد والغاية .

وقد بسط هذا المعنى الامام الرازي فقال مالم خصه : فإن قتل : أليس قوله : ويربدا الله أن يحق الحق بكلماته، ثم قوله بعد ذلك : ليحق الحق، تكرار محض ؟ فالجواب : ليس ههنا تكرير ؛ لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء ، والمراد بالثاني : تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة ، لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين ، كان سبباً لعزة الدين وقوته ، ولهذا السبب قرنة بقوله : ويبطل الباطل ، الذي هو الشرك ، وذلك في مقابلة الحق ، الذي هو الدين والایمان . (١) وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حدثتنا في الأربعة الآيات الأولى منها عن حكم الله - تعالى - في غنائم بدر بعد أن اختلف بعض المؤمنين في شأنها ، وعن صفات المؤمنين الصادقين الذين يستحقون من الله - تعالى - أرفع الدرجات .

ثم حدثتنا في الأربعة الآيات الثانية منها عن حال بعض المؤمنين عندما دعاهم النبي - ﷺ - إلى قتال أعدائهم ، وعن مجادلتهم له في ذلك ، وعن إثمار المال على القتال ، وعن إرادة الله ما هو خير لهم في دنياهم وآخرتهم ، وفي ذلك ما فيه من العبر والعظات لقوم يعقلون .

ثم ساق - سبحانه - بعض مظاهر تدييره المحكم في هذه الغزوة ، وبعض النعم التي أنعم بها على المؤمنين ، وبعض البهارات التي تقدمت فلك الغزوة أو صاحبها ، والتي كانت تدل دلالة واضحة على أن النصر سيكون للمسلمين فقال - تعالى - :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ
بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ
بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ
وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ
فَقَبَّضُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا
فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾
هَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » الاستغاثة : طلب
الغوث والنصر . يقال : غوث الرجل ، أو قال : وأغوثاه . والاسم الغوث
والغوث والغوث . واستغاثني فلان فأغثته ، والاسم الغياث . (١) .
وقوله « مَدُّكُمْ » من الإمداد بمعنى الزيادة والإعانة . وقد جرت عادة
القرآن أن يستعمل الإمداد في الخير ، وأن يستعمل المد في الشر والذم .
قال - تعالى - : « وَاذْكُرُوا الَّذِي آمَدَكُمْ بِمَا تَعْلُونَ . آمَدَكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ .
وَجَنَّاتٍ وَعِیُونَ » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٧٠ . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٠ م

وقال - تعالى - : ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ، (١) .

وقال - تعالى - : د قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً ، (٢)

وقال - تعالى - : د الله يستهزى بهم ويمدح في طغيانهم يعمهون ، (٣)

وقوله : د مردفين ، من الإرداف بمعنى التابع .

قال الفخر الرازي : قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم د مردفين ، - بفتح الدال - . وقرأ الباقون بكسر ها . والمعنى هل للكسر ، أى : متابعين يأتى بعضهم في إثر البعض كالقوم الذين أوردوا على الدواب .

والمعنى هل قراءة الفتح ، أى : فعل بهم ذلك ، ومعناه أن الله - تعالى - أورد المسلمين وأهدم بهم (٤) أى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم .

والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم - وأنتم على أبواب بدر - د تستغيثون ربكم ، أى : تطلبون منه الفوث والنصر على عدوكم د فاستجاب لكم ، دعاءكم ، وكان من مظاهر ذلك أن أخبركم على لسان نبيكم - ﷺ - يأتى مددكم ، أى : معينكم وناصركم د بألف من الملائكة مردفين ، أى : متتابعين ، بعضهم على أثر بعض ، أو أن الله - تعالى - جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .

روى الإمام مسلم عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين

(١) سورة الإسراء . الآية .

(٢) سورة مريم . الآية .

(٣) سورة البقرة . الآية .

(٤) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٢٠ .

سوم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تلك هذه المصيبة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ، فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه .

فأناء أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فالتقاء على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله ! أكفك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله - عز وجل - : إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم . . . الآية ، فأمده الله بالملائكة (١) .

وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي - ﷺ - يوم بدر ، اللهم أنشدك ههنا ووعدهك ، اللهم إن شئت لم تعبد . فأخذ أبو بكر بيده ، فقال حسبك ، فخرج - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، (٢) .

وروى سعيد بن منصور عن طريق عبيد الله بن عبد الله بن هبة قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وتكاثروا ، وإلى المسلمين فاستقلهم ، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه . فقال رسول الله - ﷺ - وهو في صلاته : اللهم لا تودع مني ، اللهم لا تخذاني ، اللهم لا تزي - أي لا تقطعني عن أهلي وأنصاري - أو لا تنقصني شيئاً من عطائك - اللهم أنشدك ما وعدتني - أي : استنجذك وهدك ، . وروى ابن إسحاق في سيرته أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : اللهم هذه

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٥٦ . طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٨٠ هـ

سنة ١٩٦٩ م

(٢) صحيح البخاري ج ٥ ص ٩٣ . طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٥ هـ

قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، (١) .

فإن قيل : إن هذه النصوص يؤخذ منها أن هذه الاستغاثة كانت من رسول الله - ﷺ - فلماذا أسندها القرآن إلى المؤمنين ؟

فالجواب : أن المؤمنين كانوا يؤمنون على دعائه - صلى الله عليه وسلم - ويتأسون به في الدعاء ، إلا أن الروايات ذكرت دعاء الرسول - ﷺ - ، لأنه هو قائد المؤمنين ، وهو الذي يحرص الرواة على نقل دعائه ، أكثر من حرصهم على نقل دعاء غيره من أصحابه .

وقيل : إن الضمير في قوله : تستغيثون ، للرسول - ﷺ - . وجيء به مجموعا على سبيل التعظيم ، ويعبر على هذا القيل أن السياق بعد ذلك لا يلتزم معه ، لأنه خطاب للمؤمنين بالنعم التي أنعم بها - سبحانه - عليهم .

وهو - سبحانه - بالمضارع : تستغيثون ، - مع أن استغاثتهم كانت قبل نزول الآية - استحضارا للحال الماضية ، حتى يستمروا على شكرهم لله ، ولذلك عطف عليه : فاستجاب لكم ، بصيغة الماضي مسيطرة للواقع .

وكان العطف بالفاء للإشعار بأن إجابة دعائهم كانت في أعقاب تضرعهم واستغاثتهم وهذا من فضل الله عليهم ، ورحمته بهم ، حيث أجازهم من عدوهم ، ونصرهم عليه - مع قلة قوتهم عنه - نصرا مؤزرا .

والسين والتاء في قوله : تستغيثون ، للطلب . أي : تطلبون منه الفوت - بالنصر . وفي قوله : فاستجاب لكم ، فائدتان . أي : فاجاب دعاءكم . فإن قيل : إن الله - تعالى - ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة ، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما ؟

فالجواب أن الله - تعالى - أمد المؤمنين بألف من الملائكة في يوم بدر ، كما بين هنا في سورة الأنفال ، ثم زاد عددهم إلى ثلاثة آلاف كما قال - تعالى - في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تهتدون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . . . » ثم زاد عددهم مرة أخرى إلى خمسة آلاف . قال - تعالى - « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، (١) » .

وقد صبروا واتقوا وأناهم المشركون من مكة فورا حين استنفرهم أبو سفيان لإيقاد العير . . فكان المدد خمسة آلاف . .

واختار ابن جرير أنهم وعدوا بالمدد بعد الألف . ولا دلالة في الآيات على أنهم أمدوا بما زاد على ذلك ، ولا على أنهم لم يمدوا ، ولا يثبت شيء من ذلك إلا بنص .

وهذا بناء على أن المدد الذي وعد الله به المؤمنين في آيات سورة آل عمران كان خاصاً بغزوة بدر .

أما على الرأي القائل بأن هذا المدد الذي بتلك الآيات كان خاصاً بغزوة أحد فلا يكون هناك إشكال بين ما جاء في السورتين .

وقد بسط القول في هذه المسألة الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه :

« اختلف المفسرون في هذا الموعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين :

أحدهما : أن قوله - تعالى - : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن

يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة . » متعاق بقوله : « ولقد نصركم الله ببدر . »

وهذا قول الحسن والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم . .

فإن قيل فكيف للجمع بين هذه الآيات - التي في سورة آل عمران

وبين قوله في سورة الأنفال - : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني

مددكم بألف من الملائكة مردفين ؟ » .

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٢٣ - ١٢٥ :

فالجواب : أن التنصيص على الآلاف هنا ، لا ينافي الثلاثة الآلاف مما أوتوها لقوله - تعالى - « مردفهم » بمعنى يردنهم فيهمهم ويتبعهم ألوف آخر مثلهم . قال الربيع بن أفس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . .

والقول الثاني يرى أصحابه أن هذا الورد - وهو قوله - تعالى - : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة » . متعلق بقوله - قبل ذلك - « وإذ غدوت من أهلك بمرءى المؤمنين » . حقاعد للقتال . . ، وذلك يوم أحد .

وهو قول مجاهد ، وهكرمة ، والضحاك ، وغيرهم .

لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ كانوا قليلين . وزاد هكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى - « بلى إن عصبروا وفتقوا ، فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ورحمته بهم في هذا الإمداد فقال : وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، فالآية الكريمة كلام مستأنف ساقه - سبحانه - لبيان بعض مظاهر فضله على المؤمنين ، ولبيان أن المؤثر الحقيقي هو وحده حتى يزدادوا ثقة به ، وحتى لا يقنطوا من النصر عند قلة أسبابه .

أى : وما جعل الله - تعالى - هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم - أيها المؤمنون - بالنصر على أعدائكم في هذه الغزوة الحاسمة وقوله « بشرى » مفعول لأجله مستثنى من أهم العمل .

وقوله : « ولتطمئن به قلوبكم » معطوف عليه : أى : ولتسكن بهذا الإمداد

(١) تفسير ابن كثير تصريف وتلخيص ج ١ ص ٤٠١ .

ظلمتكم ، ويزول عنكم الخوف ، وتهاجوا أهداءكم بنفوس لا يداخلها الإحجام أو القردد ..

— وقوله : « وما النصر إلا من عند الله » ، أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كان من عند الله وحده ، لأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شئ .. والقادر على كل شئ ..

وإن الوسائل مهما عظمت ، والأسباب مهما كثرت .. لا تؤدي إلى النتيجة المطلوبة والغاية المرجوة ، إلا إذا أيدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .
وقوله : « إن الله عزيز حكيم » ، أى : غالب لا يقهره شئ .. ولا ينازعه منازع حكيم في تدبيره وأفعاله .

فاجملة المكريمة تفيد قصد به التعليل لما قبله ، وفيه إشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات حكمته البالغة - سبحانه - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المنزلة الأخرى التى منحها للمؤمنين قبل أن يلتحقوا مع أعدائهم فى بدر فقال : « إذ يغشاكم للنعمان أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، ولا يرتبط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » .

وقوله : « يغشاكم » : بتشديد الشين من الغشية بمعنى التغطية من غشاء غشوية أى : غطاء .

والنعمان : أول النوم قبل أن يثقل وفعله - على الراجح - على وزن منع .
والأمنة : مصدر بمعنى الأمن . وهو طمأنينة القلب وزوال الخوف .
يقال : أمنت من كذا أمنة وأمنا وأمانا بمعنى .

قال الجمل : فى قوله : « إذ يغشاكم للنعمان » ثلاث قراءات سبعة .
الأولى : يغشاكم كغشاكم ، من غشية إذا غشاها وأصابه وفى المصباح : غشيته أغشاه من غاب تعب بمعنى أنيته - وهى قراءة أبى عمرو وابن كثير -

الثانية : يغشيكم - بإسكان الغين وكسر اللشين - من أغشاء . أى :-
أزله بكم وأوقعه عليكم - وهى قراءة نافع -

الثالثة : يغشيكم - بتشديد اللشين وفتح الغين وهى قراءة الباقيين -
من غشاء تعشية بمعنى غطاء .

أى : يغشيكم الله النعاس أى يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم .
والنعاس هى القراءة الأولى مرفوع على الفاعلية ، وعلى الأخيرتين
منصوب على المفعولية . وقوله : دأمنة ، حال أو مفعول لأجله . (١)
وقال القرطبي : .. وكان هذا للنعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها .
فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم ، ولكن الله ربط جأشهم .
وعن على - رضى الله عنه - قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير
المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، سوى رسول الله
ﷺ - تحت شجرة يصل حتى أصبح .

وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : - أحدهما : أن
قوامهم بالاستراحة على القتال من الغد .
الثانى : أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم : كما يقال : الأمن منيم .
والخوف مسهر ، (٢) .

وقال ابن كثير : وجاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ - لما كان
يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله -
ﷺ - سنة من النوم . ثم أستيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر ،
هذا جبريل على ثناباه النقع . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله
- تعالى - : سيرم الجمع ويولون الدبر ، (٣) .

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٢٣٠ - بتصرف يسير -

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٧٢

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩١

والمعنى : وأذكروا - أيها المؤمنون - أيضاً ، وقت أن كنتم متبعين حولقين على مصيركم في هذه المعركة ، فألقى الله عليكم النعاس ، وغشاكم به قبل التحاقكم بأعدائكم ، ليكون أماناً لقلوبكم ، وراحة لأبدانكم ، وبشارة خير لكم .

هذا ، ومن العلماء الذين تكلموا عن نعمة النعاس التي ساقها الله للمؤمنين قبل المعركة ، الإمامان الرازي ومحمد عبده .

أما الإمام الرازي فقد قال ما يخصه : وأعلم أن كل نوم ونعاس لا يحصل إلا من قبل الله - تعالى - فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله لا بد فيه من مزيد فائدة ، وذكروا في ذلك وجوها : منها : أن الخائف إذا خاف من عدوه فإنه لا يأخذ النوم ، وإذا نام الخائفون آمنوا . فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد ، يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن .

ومنها : أنهم ما ناموا يوماً غير ما يتمكن معه العدو من معاصمتهم ، بل كان ذلك نعاساً يزول معه الإعياء والكلال ، ولو قصد العدو في هذه الحالة لعرفوا وصوله ، ولقدروا على دفعه .

ومنها : أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس للجميع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة . فلهمذا السبب قيل : إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز (١) .

وقال الإمام محمد عبده : لقد مضت سنة الله في الخلق ، بأن من يتوقع في صبيحة ليلته هولا كبيراً ، ومصائباً عظيماً ، فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه فيصبح خاملاً ضعيفاً . وقد كان المسلمون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بانهم أن جيئاً يزيد على هدم ثلاثة أضاف سيحاربهم غداً ، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرض والسهاد . ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس : غشيهم فناموا ، واثقين بالله ، مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على

همة ونشاط في لقاء عدوهم وعـدوه . فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقتـه
الحرب ، بل قبلها . . . (١) .

وبذلك نرى أن النعاس الذي أنزله الله تعالى - على المؤمنين قبل لقاءهم
بأعدائهم في بدر كان نعمة عظيمة ، ومنة جليلة .

وقوله - تعالى - : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهروكم به ، معطوف
على قوله « يغشاكم » ، وهو - أي : إنزال الماء من السماء - نعمة عظمى تحمل
في طيلانها نعماً ومناً .

أولها : يتجلى في هذه الجملة للكرامة ، لأنه - سبحانه - أنزل على المؤمنين
المطر من السماء ليطهروهم به من الحدثنين : الأصغر والأكبر ، فإن المؤمن
- كما يقول الإمام الرازي - « يكاد يستعذر نفسه إذا كان جنباً ، ويتم إذا
لم يتمكن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب . . . » (٢) .

وثانيها : قوله - تعالى - : « ويذهب عنكم رجز الشيطان » ،
وأصل الرجز : الاضطراب ويطلق على كل ما تشتمد مشقته على النفوس .
قال الراغب : أصل الرجز : الاضطراب ، ومنه قيل رجز اليعرب رجزاً
فهو أرجو . وناقة رجزاء إذا تقارب خطوها واضطرب لضعفها . . . (٣)
والمراد برجز الشيطان : وسوسته للمؤمنين ، وتخويفه إياهم من المعاش
وغيره عند فقدم للماء ، وإلقائه الظنون السيئة في قلوبهم .

أي : أنه - سبحانه - أنزل عليكم الماء - أيها المؤمنون - ليطهروكم به
تطهيراً حسيماً ، وليزيل عنكم وسوسة الشيطان ، بتخويفه إياكم من المعاش
ويالقائه في نفوسكم الظنون والأوهام . . . وهذا هو التطهير الباطني .

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ١٨٥

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٣٣

(٣) المفردات في غريب القرآن ج ١٧٨ . الأصفهاني . طبعة مصطفى

وثالثها قوله - تعالى - : وليربط على قلوبكم ، أى : وليقويها بالثقة في
 نصر الله ، وليوطنها على الصبر والطمأنينة . . . ولا شك أن وجود الماء
 في حوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم ، وثباتاً على ثباتهم ، أما فقداه فإنه
 يؤدي إلى فقد الثقة والاطمئنان ، بل وإلى الهزيمة المحققة .
 وأصل الربط : الشد . ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ،
 أى : حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط-
 الجأش . أى : ثابت متمكن .

ورابع هذه النعم التي تولدت من نزول الماء من السماء على المؤمنين ،
 قبل خوضهم معركة بدر ، يتجلى في قوله - تعالى - : ويثبت به الأقدام .
 أى : أنه - سبحانه - أنزل عليهم المطر قبل المعركة لتطهيرهم حساباً
 ومعنوياً ، ولتقويتهم وطمأنينتهم ، وليثبت أقدامهم به حتى لا تسوخ
 في الرمال ، وحتى يسهل المشى عليها ، إذ من المعروف أنه من العسير المشى
 على الرمال ، فإذا ما نزلت عليها الأمطار جددت وسهل السير فوقها ، وانطفأ
 غبارها . . . فالضمير في قوله : به ، يعود على الماء المنزل من السماء .
 قال الزمخشري : ويجوز أن يعود للربط - في قوله : وليربط على
 قلوبكم ، لأن القلب إذا تمكن فيه للصبر والجرأة ثبتت القدم في
 مواطن القتال .

هذا ، وقد وردت آثار متعددة توضح ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة
 من نعم جليلة ، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزل النبي - ﷺ -
 يعني حين سار إلى بدر ، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة - أى كثيرة
 مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم
 الغيظ ، فوسوس بينهم ، تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد
 غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبيين ؟ فأمر الله عليهم مطراً

عديداً ، فشرّب المسلمون ونظفروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ،
وقبّط الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى
القوم ... (١) .

وعن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الواهي إدهساً فأصاب
رسول الله - ﷺ - وأصحابه ما لبده لهم الأرض ولم يمنهم من المسير ،
وأصاب قريشاً ما لم يقدرُوا على أن يرحلوا معه ، (٢) .

ومن هذا القول المنقول عن عروة - رضى الله عنه - نرى أن الحركان
خيماً للمسلمين ، وكان شراً على الكافرين ، لأن المسلمين كانوا في مكان
يصلحه المطر ، بينما كان المشركون في مكان يؤذيهم فيه المطر .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم في نصرهم على المشركين
فقال - سبحانه - : « إذ يوحى إليك إلى الملايكة أنى أمركم . فثبتوا الذين
آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق
واضربوا منهم كل بنان » .

والبنان : - كما يقول القرطبي - واحدة بنانة . وهى هنا الأصابع وغيرها
من الأعضاء .. وهو - أى البنان - مشتق من قولهم أين الرجل بالمكان إذا
أقام به . فالبنان يعتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان
هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب
وموضع الضرب ، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف
سائر الأعضاء .

وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر
الإنسان ... (٣) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ١٩٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٢

(٣) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٧٩

والمعنى : واذا ذكر — أيها الرسول الكريم — وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدهم المسلمين في بدر ، أني معكم ، أي بعوني وتأيدى ، فثبتوا الذين آمنوا ، أي فقوموا قلوبهم ، واملأوا نفوسهم ثقة بالنصر ، وصححوا نياتهم في القتال حتى تكون غايتهم إعلاء كلمة الله . . .

قال الألوسي : والمراد بالثبوت : الحمل على الثبات في موطن الحرب والجد في مقاساة شدائد القتال . . وكان ذلك هنا في قول — بظهورهم لهم في صورة بشرية يعرفونها ، ووجدوا إياهم النصر على إعدادهم ؛ فقد أخرج البيهقي في الدلائل أن الملك كان يأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشيء . ، والله معكم . كروا عليهم . . .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها في قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم . وللملك قوة لإلقاء الخير في القلب ويقال له لإلهام ، كما أن الشيطان قوة لإلقاء الشر ويقال له وسوسة ، (١) .

وقوله — تعالى — : د سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، بشاره عظيمة للمؤمنين .

أي : ساملأ قلوب الكافرين بالخوف والفرع منكم — أيها المؤمنون — ، وسأقذف فيها الطلع والجرع حتى تتمكنوا منهم . . .

والرعب : أنزعاج النفس وخوفها من توقع مكروه ، وأصله التقطيع من قولهم : رعبت السنام ترعبياً إذا قطعته مستطيلاً . كأن الخوف يقطع الفؤاد . وقوله : د فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، الخطاب فيه للمؤمنين ، وقبل ، للملائكة .

والمراد بما فوق الأعناق الرؤوس كما روى عن عطاء وعكرمة . أو

المراد بها الأعناق ذاتها فتكون فوق بمعنى على وهو قول أبي عبيدة .

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١١٧ — بتلخيص يسير —

(م هـ — الأنفال)

ويرى صاحب الكشف أن المراد بما فوق الاعتناق: أعلى الاعتناق التي هي المذابح ، لأنها مفصل ، فكان إيقاع الضرب فيها جزاء وتطهير للردوس . والمراد بالبنان - كما سبق أن بينا - الأصابع أو مطلق الأطراف . والمعنى : لقد أعطيتكم - أيها المؤمنون - من وسائل النصر ما أعطيتكم ، فهاجموا أعدائي واعداءكم بقوة وغلظة ، واضربوهم على أعناقهم وردوهم ومواقع الذبح فيهم . واضربوهم على كل أطرافهم حتى تشلوا حركتهم ، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . . .

ثم بين - سبحانه - السبب في تكليفه المؤمنين بمجاهدة الكافرين والإغلاط عليهم وقتلهم . . .

فقال - تعالى - ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله وهم يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . .

فلم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وأمرهم بضرب الكافرين . . وهو في محل رفع على الابتداء . وقوله : بأنهم . . . خبره . والباء السببية .

وقوله : شاقوا ، من المشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة مشتقة من الشق - أي الجانب - ، فكل واحد من المتعادين أو المتخالفين صار في شق غير شق صاحبه .

والمعنى : ذلك الذي ذكره الله - تعالى - فيما سبق ، من تأييده للمؤمنين وأمره بإيائهم بضرب الكافرين ، سببه أن هؤلاء الكافرين شاقوا الله ورسوله ، أي : عادوهما وخالفوا شرعهما ، ومن يشاقق الله ورسوله ، بأن يسير في غير الطريق الذي أمراه ، فإن الله شديد العقاب ، لهذا المعادى والمخالف .

قال الألوسي : وقوله : فإن الله شديد العقاب ، إما نفس للجزاء ، وقد حنف منه العائد عند من يلتزم ولا يكتفي بالعائد في الربط . أي : شديد العقاب له . أو قائم مقام الجزاء المحذوف أي : يعاقبه الله - تعالى - فإن الله -

شديد العقاب . وأباماً كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريق برهاني .
 كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد بسبب المشاققة لله - تعالى - ورسوله - ﷺ -
 وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان ، فله بسبب ذلك عقاب شديد ،
 فيأثم لهم بسبب مشاققة الله ورسوله عقاب شديد (١) .

ثم بوجه - سبحانه - خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقوا
 الله ورسوله ، متوعداً إياهم بسوء المصير فيقول : ذلكم فذوقوه وأن
 للكافرين عذاب النار ، فاسم الإشارة : ذلكم ، يعود إلى ما سبق بيانه من
 تأييد المؤمنين ، وخذلان الكافرين وإنزال العقوبة بهم .

أي ذلكم الذي نزل بكم - أيها الكافرون - من القتل والأسر في
 بدر ، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرككم وعنادكم ، فذوقوا
 آلامه ، وتجرعوا غصصه ، وهيشوا في مذله .

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلكم عذاب النار الذي هو أشد وأبقى
 من عذاب الدنيا . فأنكروا الكفر ، وادخلوا في الإيمان لتنجوا من العذاب
 وتنالوا الثواب .

قال الجمل ما ملخصه وقوله : ذلكم فذوقوه . . . يجوز فيه وجوه
 من الاعراب أحدها أن يرفع بالابتداء والخبر محذوف أي ذلكم العقاب .
 الثاني : أن يرفع على أنه خير لمبتدأ محذوف أي : العقاب ذلكم أو الأمر
 ذلكم وعلى هذين الوجهين يكون قوله فذوقوه ، لانعلق له بما قبله من جهة
 الاعراب فهو مستأنف ، والوقف يتم على قوله : ذلكم ، الثالث : أن
 يرتفع بالابتداء . والخبر قوله فذوقوه ، وهذا على رأى الأخفش .

وقوله ، وأن للكافرين عذاب النار ، معطوف على قوله ذلكم ، أو منصوب
 على أنه مفعول معه ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة

ووضع الظاهر فيه موضع المضمرة - بأن قال « فذوقوه » ، وأن الكافرين ، ولم يقل فذوقوه وأن لكم - للدلالة على أن الكفر سبب للعذاب الأجل أو للجمع بينهما ، (١) .

ومن هذا نرى أن تلك الآيات الكريمة قد ذكرت المؤمنين الذين اشتركوا في غزوة بدر بألوان من نعم الله عليهم ، وبأنواع من البشارات التي كانت تدل على أن النصر سيكون لهم .

١ - ذكرتهم بوعده الله لهم بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير ستكون لهم ، وقد وفى لهم - سبحانه - بوعده ، حيث جعل النصر لهم ، ومن أوفى بوعده من الله ؟ .

٢ - وذكرتهم بإجابة الله لدعائهم ، حيث أمد بهم بأنف من الملائكة مردفين .
٤ - وذكرتهم بالنعاس الذي ألقاه - سبحانه - عليهم قبل المعركة ، ليكون أماناً لهم ، وراحة لأبدانهم .

٤ - ذكرتهم بنزول المطر عليهم من السماء ليكون طهارة ظاهرية وباطنية لهم ؛ وإيكون طعاماً مدينة لقلوبهم ، وتثبيتاً لأقدامهم .

٥ - وذكرتهم بأمر الله لملائكته أن يثبتوهم ، بأن يفرسوا في قلوبهم الثقة في نصر الله لهم ، والاستهانة بقوة أعدائهم .

٦ - وذكرتهم بما ألقاه - سبحانه - في قلوب الكافرين من رعب وفرع وجزع ، جعلهم ينهزمون أمامهم .

٧ - وذكرتهم بأن ما أصاب أعداء الله وأعداءهم من قتل وأسر وخسران كان سببه كفرهم وعنادهم وإيثارهم سبيل الفنى على سبيل الرشاد ، وأنهم - إذا استعمروا في كفرهم - فسيلاقون في الآخرة عقاباً أشد وأبقى مما نزل بهم في الدنيا .

ولا شك أن هذا التفكر من مقاصده الأساسية حض المؤمنين على

الاستجابة لله وارسوله : وعلى مداومة الشكر لحالهم ، فهو - سبحانه - الذى منحهم هذه النعم الجزيلة التى تمكنوا معها من رقاب أعدائهم ، وهو الذى جمعهم بغنمهم كل هذه الغنائم بعد أن خرجوا من ديارهم بلا مال ولا ظم ولا عناد .

هذا ، ومن الخير قبل أن ننتقل من هذه الآيات إلى غيرها ، أن نتكلم بشئ من التفصيل عن مسألة كثر الحديث عنها .

وهذه المسألة هى : ماذا كانت وظيفة الملائكة فى بدر ؟ أكانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين لحسب أم أنهم بجانب هذا التثبيت قاتلوا فعلا معهم ؟ إننا بمطالعتنا لما كتبه الكتاتيون عن هذه المسألة نراهم فى كتابتهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) أما القسم الأول منهم ، فيرى أن الملائكة فى غزوة بدر لم تكن وظيفتهم للتثبيت لحسب ، وإنما هم قاتلوا مع المؤمنين فعلا ، ويستدلون على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : بينما رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلا يقول : أقدم حبزوم . فخر المشرك مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه . فجاء فحدث رسول الله - ﷺ - فقال : صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة (١) .

وجاء عنه أنه قال - أيضاً - : كانت سما الملائكة يوم بدر عمام بيضاء ، ويوم أحد عمام خضراء ، ولم تقا تل الملائكة فى يوم سوى بدر ، وكانوا فيما سواه عددا ومددا (٢) .

وعن أبى داود الهذلى قال : تبعنا رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر . فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي .

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٧٨ . (٢) معالم التنزيل للبقرى ج ١ ص ١٠

٤ - وروى عن عبد الله بن مسعود أن أبا جهل سأله يوم بدر : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمعه ولا نرى شخصاً ؟ فقال : من الملائكة ، فقال له أبو جهل : هم إذن غلبونا لا أنتم (١) .

٥ - وقال القرطبي : وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت . ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهيد بدر : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب - أى الطريق فى الجبل - الذى منه الملائكة . لأشك ولا أمارى ، وعن سهل بن حنيف قال : لقد رأيتنا يوم بدر إن أحداً يشير يسيفه إلى رأس المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه (٢) .

هذه أهم الروايات التى استند إليها العلماء الذين يرون أن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القرطبي ، فهو يرى أن هذا هو الصحيح وأنه رأى الجمهور .

(ب) أما القسم الثانى من العلماء فىرى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فى المعركة ، وتقوية أرواحهم وقلوبهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - أنه ليس فى الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر آية واحدة صريحة فى أن الملائكة قد قاتلت بالفعل ، وإنما هى صريحة فى أن الله - تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة ، وجعل هذا الإمداد بشارة لهم . قال الألوسي عند تفسيره لقوله - تعالى - : « وما جعله الله إلا بشري » . وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالاً ، وهو مذهب لبعضهم . ويشعر ظاهرها بأن النبي - ﷺ - أخبرهم بذلك الإمداد ، وفى الأخبار ما يؤيد .

بل جاء في غير ما خبر أن الصحابة رأوا الملائكة - عليهم السلام - (١) .
 ٢ - أن بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن غزوة بدر قد وضحت
 وظيفه الملائكة توضحها تماماً ، ومن ذلك قوله - تعالى - : «إذ يوحى ربك
 إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا
 الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » .

قال ابن جرير في معنى «فثبتوا الذين آمنوا ، وقوا عزمهم ، وصححوا
 نياتهم في قتال أعدائهم من المشركين (٢)» .

وقال في معنى قوله - تعالى - «فاضربوا فوق الأعناق ...» : «والصواب
 من القول في ذلك أن يقال : إن الله أمر المؤمنين معلماً إياهم كيفية قتل المشركين
 وضربهم بالسيف ، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل ...» (٣)
 وقال الفخر الرازي : قوله «فاضربوا فوق الأعناق ، فيه وجهان :
 الأول : أنه أمر للملائكة متصل بقوله - تعالى - «فثبتوا ...» وقيل : بل
 أمر للمؤمنين . وهذا هو الأصح لما بينا أنه - تعالى - ما أنزل الملائكة
 لأجل المقاتلة والمحاربة ...» (٣) .

٣ - أن الروايات التي استند إليها من قال بأن الملائكة قاتلت مع
 المؤمنين في بدر لم ترد في كتب السنة المعتمدة ، بل لم يذكر معظمها الإمام
 ابن جرير مع علمنا باهتمامه بالروايات في تفسيره . وفضلاً عن ذلك فإن
 أكثر هذه الروايات لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلت .

فمثلاً رواية أبي داود المازني لم تصرح بأن المشرك الذي أراد هو أن يقتله
 قد قتله ملك . وكذلك الحال بالنسبة لروايتي أبي أسيد وسهيل بن حنيف
 وأما قول أبي جهم لابن مسعود : «هم إذن غلبونا - بمعنى الملائكة - لأنهم ،

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١٧٤

(٢) د ابن جرير ج ٩ ص ١٩٧ ، ص ١٩٨

(٣) د الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٣٥

فترجع أنه من باب التبرير والمغالطة . فهو يريد أن ينفي . - فقدأ منهم -
وهؤلاء - قوة المؤمنين الذين صرعوا أمثالهم من الطغاة . . .

والخلاصة أن معظم هذه الروايات - مع ضعفها - لم تصوح بأن
الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر .

٤ - استبعد كثير من العلماء اشتراك الملائكة في القتال ، ومن هؤلاء
العلماء الإمام أبو بكر الأصم فقد قال :

« إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بدمين
قوم لوط . فإذا حضر هو يوم بدر - وجميع الروايات تذكر أنه كان على
رأس الملائكة - فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ بل أى حاجة حينئذ
إلى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين .
وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

وأيضاً لو قاتلوا فيما أن يكرهوا بحيث يراهم الناس أولاً . . . وعلى الأول
يكون المشاهد من هسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ، ولم يقل أحد
بذلك . . . وعلى الثاني كان يلزم جر الروس ، وتمزيق البطون ، وإسقاط
الكفار من غير مشاهدة فاعل ، ومثل هذا من أعظم المعجزات ، فكان يجب
أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف . . . (١) .

وقال صاحب المنار : مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة دوماً جمعه

إلا بشرى . . . إلخ . . .

وقوله - تعالى - « سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب . . . إلخ »
بده كلام خوطب به النبي ﷺ والمؤمنون تنمة للبشرى . فيكون الأمر
بالضرب موجهاً إلى المزمعين قطعاً ، وعليه المحققون الذين جزموا بأن
الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعاً لما قبله من الآيات . . .

ثم قال : وفي كتب السير وصف للمعركة علم منه القاتلون والأمرون

لأشد المشركين بأساء، فهل تعارض هذه البيئات الثقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حربة بل تنقل . . .

كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التي شوهت التفسير وقلبت الحقائق، حتى إنها خالفت نص القرآن نفسه فأنه - تعالى يقول في إمداد الملائكة - وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . . . وهذه الروايات تقول بل جعله مقاتلة، ولئن هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلا باجتماع ألف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصمهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة .

إلا أن في هذا من تعظيم شأن المشركين، وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل، إلا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند، ولم يرفع منها إلا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الألويني وغيره بغير سند. وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً؛ فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسله . (١) هذه أم الأدلة التي استند إليها القائلون بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر، وإنما كانت وظائفهم تثبيت المؤمنين، وتقوية عزائمهم . وتصحيح نياتهم . (ج) أما القسم الثالث من العلماء الذين كتبوا في هذه المسألة؛ فمنهم الذي اكتفى بسرد الآراء دون أن يرجح بينها؛ ومن هؤلاء صاحب الكشف، فقد قال :

فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه . فقيل : نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال . فقالت . وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب وقيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثر السواد، ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم . . . (٢)

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ٥٦٥

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٠١

ومنهم الذى يرى أن البحث فى تفاصيل أمثال هذه المسائل ، ليس من الجهد الذى هو طابع هذه العقيدة ، ومن هؤلاء صاحب « فى ظلال القرآن » ، فقد قال ما ملخصه :

« تروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر: عددهم وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين ، وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين ونحن - على طريقتنا فى الظلال - نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة ، والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مبعثكم بالف من الملائكة . ، فهذا عددهم ، إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى مبعثكم فثبتوا الذين آمنوا . . . فهذا عملهم . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . ومحسبنا أن تعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والاعداء كثرة ، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملائكة إلى أعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله سبحانه فى كتابه . . . إننا نؤمن بوجود خلق أسماهم الملائكة ، ولكننا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلا نملك من إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصرة المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى . وقد أوحى إليهم ربهم : أنى مبعثكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا - لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندري كيف فعلوا . . . »

إن البحث التفصيلى فى كيفية هذه الأفعال كالم الذى من الجهد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الزيف العقلى على للنفس والعقول . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله - سبحانه - للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لى أضع وأجدى . . . (١) .

تفسير فى ظلال القرآن ج ٩ ص ٨١٥ للمرحوم الأستاذ سيد قطب

وبعد فهذه أم الآقول التي قالها العلماء في مسألة وظيفة الملائكة في جدر ، بسطناها بشيء من التفصيل لتتضح آراؤهم فيها .
والذي نراه بعد كل ذلك : أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، هو القول الذي ذهب أصحابه إلى أن الملائكة في بدر لم تقاوم ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت ، وتقوية عزائم المؤمنين . . وذلك لما سبق أن بيناه من أدلة وحجج - والله أعلم بالصواب .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض البشارات والنعم التي ساقها للمؤمنين الذين اشتركوا في بدر . وجه - سبحانه - فداء إليهم أمرهم فيه بالثبات في وجوه أعدائهم ، وذكرهم بجانب من منته عليهم .

فقال - تعالى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبُهُ إِلَىٰ مَا تَحَرَّاهُ الْقِتَالُ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله - سبحانه - : زحفا ، : مصدر زحف وأصله للصبي ، وهو أن يزحف على إسته قبل أن يمشى . ثم أطلق على الجيش الكشيف المتوجه لعدوه لأنه لكثرتة وتكاثفه يرى كأنه جسم واحد يزحف يبطه وإن كان سريع السير .

قال الجمل : وفي المصباح : زحف القوم زحفا وزحوقا . ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف مثل فلس وفلوس . ونصب قوله : : زحفا ، على أنه حال من المفعول وهو الذين كفروا ، أى إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين نحوكم .

والآداب : جمع دبر - بضمين - وهو الخلف ، ومقابله القبل وهو الإمام ، ويطلق لفظ الدبر على الظهر وهو المراد هنا .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله إيماننا حقا ، إذا لقيتم الذين كفروا - زاحفين نحوكم لقتالكم ، فلا تولوهم الآداب ، أى . فلا تفروا منهم ، ولا قولوهم ظهوركم منهزمين ، بل قابلوهم بقوة وغلظة وشجاعة ، فإن من شأن المؤمن أن يكور شجاعا لا جبانا ، ومقبلا غير مدبر .

فلما من رواية الآداب : الانهزام ، لأن المنهزم يولى ظهره وفقا لمن انهزم منه .

وعدل من لفظ الظهور إلى الآداب ، تقييحا للانهزام ، وتنفيرا منه ، لأن القبل والدبر يكتنى بهما عن النسوة تين ثم بين - سبحانه - أن قولية الآداب محرمة إلا في حالتين فقال - تعالى - : : ومن يولهم يومئذ دبره

إلا متحرفا للقتال أو متحيزاً إلى فئة - فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهم وبئس المصير .

وقوله : « متحرفا ، من التحرف بمعنى الميل والانحراف من جهة إلى جهة بقصد المخادعة في القتال وهو منصوب على الحالية .

وقوله : « أو متحيزاً إلى فئة ، من التحيز بمعنى الانضمام . تقول : حيز الشيء أحوزه إذا ضممته إليك . وتحوزت الحية أى أنطوت على نفسها .

والفئة : الجماعة من الناس . سميت بذلك لرجوع بعضهم إلى بعض في التعاضد والتناصر . من الفىء بمعنى الرجوع إلى حالة محودة .

والمعنى : أن تولية الأدبار محرمة إلا في حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون المؤمن عند توليته الأدبار مائلاً عن مكانه إلى مكان آخر أصلح للقتال فيه ، أو أن يكون منعظاً إلى قتال طائفة من الأدبار أهم من الطائفة التى أمامه ، أو أن يوم عدوه بأنه منهزم أمامه استدراجاً له ، ثم يكر عليه فيقتله .

الحالة الثانية : أن يكون فى توليه منحاذاً إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضمماً إليها للتعلون معها على القتال ، حيث إنها فى حاجة إليه .

وهذا كله من أبواب خدع الحرب ومكايدها .

وقد توعد - سبحانه - الذى ينهزم أمام الأعداء فى غير هاتين الحالتين بقوله : « فقد باء بغضب من الله وماواه جهم وبئس المصير » .

أى : ومن يول الكافرين يوم لقائهم دبره غير متحرف ولا متميز فقد رجع ملتبساً بغضب شديد كائن من الله - تعالى - وماواه الذى يأوى إليه فى الآخرة جهم وبئس المصير .

وقوله : « فقد باء بغضب من الله .. » جواب الشرط أقوله ، ومن يولهم

هذا ، ومن الأحكام التى أخفها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - وجوب مصاربة العدو ، والثبات في وجهه عند القتال ، وتحريم الفرار منه . . قال الألوسى : « في الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المنحرف أو المنحيز . وخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « اجتذوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف - وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . » ثم قال : وجاءه - التولى يوم الزحف - من الكبار فى غير ما حدث (١) .

٢ - أن الخطاب فى الآيتين لجميع المؤمنين وليس خاصاً بأهل بدر . قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلف المفسرون فى أن هذا الحكم - وهو تحريم التولى أمام الزحف - هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق ؟

فنقل عن أبى سعيد الخدرى والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان اتهم يوم بدر . قالوا : والسبب فى اختصاص بدر بهذا الحكم أن رسول الله - ﷺ - كان حاضراً يوم بدر .. وأنه - سبحانه - شدد الأمر على أهل بدر ؛ لأنه كان أول الجهاد ، ولو اتفق للمسلمين إنهمزام فيه لزم منه الخلل العظيم .

والقول الثانى : أن الحكم المذكور فى هذه الآية كان عاماً فى جميع الحروب بدليل أن قوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا إذا قاتلتم الذين كفروا . . . » عام فيتناول جميع الصور . أقصى ما فى الباب أنه نزل فى واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٢٨

(٢) ابن جرير ج ٩ ص ١٠٣

وهذا القول الثاني هو الذي نرجحه ، لأن ظاهر الآية يفيد العموم لكل المؤمنين في كل زمان ومكان ، ولأن سورة الأنفال كلها قد نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها .

٣ - أن الآيتين محكمتان وليستا منسوختين . أى أن تحریم التولى يوم الزحف على غير المتحرف أو المتحيز ثابت لم ينسخ .

وقد رجح ذلك الإمام ابن جرير فقال ماملخصه : « سئل عطاء بن أبي رباح عن قوله « ومن يولهم يومئذ دبره » فقال : هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال بعد ذلك وهي قوله - تعالى - : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . . . وليس لقوم أن يفروا من مثلهم .

وقال آخرون : بل هذه الآية حكمها عام في كل من ولى الدبر عن العدو منهزما .

وأولى التأويلين بالصواب في هذه الآية عندي : قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت في أهل بدر . وحكمها ثابت في جميع المؤمنين . وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال ، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين ؛ حيث كانت من أرض الإسلام ، وأن ولاءهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما - بغير نية لإحدى . الخلتين اللئ أباح الله التولية بهما - فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه . وإنما قلنا : هي محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا في غير موضع أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ وله في غير النسخ وجه ، إلا بحجة يجب التسليم لها : من خير بقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قوله - تعالى - « ومن يولهم يومئذ دبره » إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، (١) .

ثم بين لهم - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ليزدادوا شكراً له ،
 وطاعة لأمره فقال - تعالى - : فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ
 رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم ،
 قال القرطبي : قوله - تعالى - : فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، أى يوم
 بدر . روى أن أصحاب رسول الله - ﷺ - لما صدروا عن بدر .

ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال : قتلنا كذا ، وأمرت كذا ، فجاء من
 ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله هو المميت والمقدر
 لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسيبه وقصده . . . (١) .

وقال ابن كثير : قال علي بن طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله
 - ﷺ - ، يديه - يعنى يوم بدر - فقال : يا رب إن نهلك هذه
 العصابة فلن نعبد في الأرض أبداً ، فقال جبريل : د خذ قبضة من التراب
 حارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فامتن
 المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا
 مدبرين .

وقال السدي : قال رسول الله - ﷺ - لعلي يوم بدر : أعطني
 حصاً من الأرض ، فنارله حصاً عليه تراب د رمى به في وجوه القوم ، فلم
 يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك الغراب شيء ، ثم ردفهم المؤمنون
 يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله : د فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم وما رميت
 إذ رميت ولكن الله رمى . . .

وقال أبو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا :
 لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من تراب
 فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهدت الوجوه ، فدخلت في

تَأْمِينُهُمْ كَلِمَ . وَأَقْبِلْ أَجْهَابَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَزِلْ اللَّهُ . دوما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ رَمَى ، (١) .

وهناك روايات أخرى ذكرت أن قوله - تعالى - دوما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ رَمَى ، المقصود به رَمِيَهُ - ﷺ - لأنَّ ابن خفاف يوم أحد . أو رَمِيَهُ لِكُنْهَانَةَ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرِ ، أو رَمِيَهُ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ حَنْزِينَ .

ولكن المحققين من العلماء ضعفوا هذه الروايات ، ورجحوا أن المقصود بهذه الآية ما فعله النبي - ﷺ - في بدر من رميه بالحصاني وجوه المشركين ، لأن السورة تحكي أحداث غزوة بدر ، وغزوة بدر كانت قبل أحد وخيبر وحنين . . .

قال ابن كثير : وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وهكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي - ﷺ - يوم بدر . . . وسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم .

والمعنى : إنكم - أيها المؤمنون - لم تقتلوا المشركين في بدر بقوتكم وشجاعتكم ، ولكن الله - تعالى - هو الذي أظهركم بحوله وقوته ، بأن خذلهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، ومنحككم من معونته ورعايته ما بلغكم هذا النصر .

والفاء في قوله : فلم تقتلوهم . . . يرى صاحب الكشف أنها جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، لأنه هو الذي أزل الملائكة ، وألقى الرعب في قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وأذهب عن قلوبكم الفزع والجزع .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٦٠ - سورة الأنفال)

وقوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، خطاب للنبي - ﷺ - بطريق التلويح .

أى : « وما رميت ، بالرعب فى قلوب الأعداء » إذ رميت ، فى وجوههم بالحصباء يوم بدر ، ولكن الله ، - تعالى - هو الذى رمى ، بالرعب فى قلوبهم ففهمهم ونصرهم عليهم .

أو المعنى : ما أوصلت الحصباء إلى أعينهم إذ رميتهم بها ، ولكن الله هو الذى أوصلم إلىها .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : « يعنى أن الرمية التى رميتها - يا محمد - لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله ، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . فثبت الرمية رسول الله - ﷺ - لأن صورتها وجدت منه . ونفاها عنه ، لأن أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله - عز وجل - ، فكان الله - تعالى - هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول - ﷺ - أصلاً (١) .

وقال الألومى : واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه - تعالى - وإنما لهم كسبها ومباشرتها وقال الإمام : أثبت - سبحانه - كونه - ﷺ - رامياً ، ونفى كونه رامياً ، فوجب حمله على أنه - ﷺ - رمى كسباً ، والله - تعالى - رمى خلقاً (٢) .

فإن قيل : لماذا ذكر مفعول القتل منفياً ومثبتاً ولم يذكر للرمى مفعول أظفر ؟ فالجواب - كما يقول أبو السعود - : « أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفياً وإثباتاً ، إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر ، وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكرره إلى حيث أصاب عيني كل واحد من أوائك الأمة اللمعة شىء من ذلك ، (٣) »

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٠٧ (٢) تفسير الألومى ج ٩ ص ٩٨٥

(٣) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٢٢٣

وقوله - سبحانه - : « وليبلى المؤمنين منهم بلاء حسناً ، بيان لبعض
وجوه حكمته - سبحانه - في خذلان الكافرين ، ونصر المؤمنين .

وقوله « ليبلى » من البلاء بمعنى الاختبار . وهو يكون بالنعمة لإظهار
الشكر ، كما يكون بالحنة لإظهار الهبر . والمراد به هنا : الإحسان والنعمة
والعطاء . يزداد المؤمنون شكراً لربهم الذى وهبهم ما وهب من نعم .

واللام للتعليل متعلقة بمحذوف مؤخر .

والمعنى . ولكى يحسن - سبحانه - لمرعباده المؤمنين ، وينعم عليهم بالنصر
والغنائم ؛ يزدادوا شكراً له فعل ما فعل من خذلان الكافرين وإذلالهم .
وقوله « إن الله سميع عليم » ، تذييل قصد به الحض على طاعة الله ، والتحذير
من معصيته ، أى : إن الله سميع لأقوالكم ودهائكم ، عليم بضمائركم
وقلوبكم ، فاستبقوا الخيرات لتنالوا المزيد من رهايته وانصره .

ثم يقرر - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى تقوية الحق
وتوهين الباطل ، ويزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على ثباتهم
فيقول : « ذلكم وأن الله بهن كيد للكافرين » .

قال الإمام الرازى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « موهن » - بفتح
الواو وتشديد الهاء والنون - من التوهين . تقول وهنت الشيء أى ضعفته ،
« كيد » بالانصب على المفعولين . وقرأ حفص عن عاصم « موهن كيد »
بالإضافة . وقرأ الباقون « موهن » بالتحفيف ، - من أو هنته فأنا موهنته
بمعنى أضعفته - « وكيد » بالانصب وتوهين الله كيدهم ومكرهم يكون بأشياء منها :
إطلاع المؤمنين على عوراتهم ، وإلقاء الرعب في قلوبهم ، وتفريق كلمتهم ، (١)
واسم الإشارة « ذلكم » يعود إلى ما سبق من نعمة الإبلاء والقتل
والرمى وغير ذلك من النعم . وهو مبتدأ وخبره محذوف ، وقوله : « وأن
الله موهن . . . » معطوف عليه .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٤١ .

المعنى : ذلكم الذين منحتهم إياكم من المعالي الحسن ، والقيل المشركين ، والإمداد بالملائكة ، وإزال الماء عليكم . ذلكم كله نعم منى إليكم ، ويضاف إلى ذلك كله أنه - سبحانه - مضعف لكيد الكافرين ومفسد لمكرهم بكم .

قال ابن كثير : وهذه بفارة أخرى مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مضعف أمرهم ، وأنهم في تيار ودمار ، (١) وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده المؤمنين بما حباهم به من من في غزوة بدر ، ليستمروا على طاعتهم له وارسوله ... أتبع ذلك بتوجيه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرسوخ في الكفر على أن يدعو الله أن يجعل الدائرة في بدر على أضل الفريقين فقال - تعالى - : : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، وإن تقنى عنكم فتكنم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين .

روى الإمام أحمد والفسائ والحاكم وصححه ، عن ثعلبة ، أن أبا جهم قال حين التقى القوم - في بدر - : اللهم أقطعنا للرحم ، وآثانا بما لا نعرفه ، فأحنه - أي فأهلكه - الفداة . فكان المستفتح (٢) .

وعن السدي أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أهدى الجندين ، وأكرم الفتيين ، وخير القبيلتين . فقال - تعالى - : : إن تستفتحوا ... الآية ، (٣) .

قال الراغب : وقوله : : إن تستفتحوا ... أي : إن طلبتم الظفر ، أو طلبتم الفتح أي الحكم ... والفتح إزالة الإغلاق والأشكال ... ويقال : فتح الفضية فتاحاً . أي فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها . قال - تعالى - : : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . . والاستفتاح :

(١) و (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٣) تفسير ابن جرير ج ٨ ، ٩ ص ٢٠٨ .

الاستنصار - أى طلب النصير - قال - تعالى - وكانوا من قبل يسفحون
على الذين كفروا ... (١) .

والمعنى : إن تطلبوا الفتح أى : القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم
المؤمنين ، فقد جاءكم الفتح ، أى : فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم
حيث حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين ، بأن أهدم ونصرهم لأنهم
على الحق ، وخذلكم وأذلهم لأنكم على الباطل .

فالخطاب مسوق للكافرين على سبيل التذكير بهم ، والتوبيخ لهم ، حيث
طلبوا من الله - تعالى - القضاء بينهم وبين المؤمنين ، والنصر عليهم ، فكان
الأمر على عكس ما أرادوا حيث حكم الله فيهم بحكمه العادل وهو خذلهم
لكفرهم وجحودهم ، وإعلاء كلمة المؤمنين ، لأنهم على الطريق القويم .

وقوله : « وإن تظاهروا فهو خير لكم ، أى : وإن تظاهروا عن الكفر
وعداوة الحق ، يكن هذا الانتهاء خيراً لكم من الكفر ومحادبة الحق .

وقوله : « وإن تعودوا بعد إن تغنى عنكم فتتكم شيئاً ولو كثرت ، »
تحذير لهم من التماذى فى الباطل بعد ترغيبهم فى الانقياد للحق .

أى : « وإن تعودوا ، إلى محاربة الرسول - ﷺ - والمؤمنين
وعداوتهم ، بعد ، عليكم بالهزيمة والذلة . وعلى المؤمنين بالنصر والعزة ،
وإن استطعتم فتتكم وجماعتكم - ولو كثرت - أن تدفع عنكم شيئاً من تلك
الهزيمة وهذه الذلة ، فإن الكثرة والقوة لا وزن لها ولا قيمة إذا لم يكن الله
مع أصحابها بعونه وتأييده .

وقوله : « وإن الله مع المؤمنين ، تحذير بقصد به تثبيت المؤمنين وإلقاء
الطمأنينة فى نفوسهم .

أى : « وإن الله مع المؤمنين بعونه وتأييده ، ومنى كان لهم معه فلن ينظبه
جالب معها بلفت قوته . .

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص. ٢٧ - بتصرفي والتأخير -

قال الجمل : « قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بفتح دال، والباقون بكسر ها . فالفتح من أوجه : أحدها : أنه على لام العلة والمطل تقديره ، ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت . والثاني : أن التقدير : ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم . والثالث أنه خبر مبتدأ محذوف . أي : والأمر أن الله مع المؤمنين .

والوجه الأخير يقرب في المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف (١) .
هذا وما جربنا عليه من أن الخطاب في قوله تعالى : « إن تستفحوا .. »
للمشركين هو رأى جمهور المفسرين .

ومنهم من يرى أن الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين ، وعليه يكون المعنى : « إن تستفحوا .. » أي تطلبوا - أيها المؤمنون - النصر على أعدائكم « فقد جاءكم الفتح ، أي : فقد جاءكم النصر من عند الله كما طلبتم .

« وإن تقاتلوا ، أي عن المنازعة في أمر الأنفال ، وعن التكاسل في طاعة الله ورسوله ، فهو ، أي هذا الاتهام ، « خير لكم » .

« وإن تعودوا ، إلى المنازعات والتكاسل ، ندد ، عليكم بالإنهكار ونهيب الأعداء .

« وإن تغنى عنكم فنتنكم شيئاً ولو كثرت ، أي : وإن تغنى عنكم فنتنكم أكثر منكم شيئاً مهما كثرت إن لم يكن الله معكم بنصره .

وأن الله - تعالى - مع المؤمنين الصادقين في إيمانهم وطاعتهم له . والذي يبدو لنا أن كون الخطاب للكافرين أرجح ، لأن أسباب النزول تؤيده ، فقد سبق أن بينا أن الكافرين عند خروجهم إلى بدر تعلقوا بأسفار النكبة وقالوا : اللهم انصر أهدى الجندين . . . وأن أبا جهل قال حين التقى القوم :

اللهم! أينما أقطع للرحم . . . فأحنه الغداة . قال ابن جرير : فكان ذلك استفتاحه ؛ فأزل الله في ذلك وإن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . . . (١) . ولعل مما يرجع أن الخطاب في قوله - تعالى - : إن تستفتحوا . . . للكافرين ، أن بعض المفسرين - كابن جرير وابن كثير - ساروا في تفسيرهم الآية على ذلك ، وأهلوا الرأي القائل بأن الخطاب للمؤمنين فلم يذكروه أصلاً أما صاحب الكشف فقد ذكره بصيغة دوقيل ، وصدر كلامه يكون الخطاب للكافرين فقال : قوله - تعالى - : : إن تستفتحوا . . . خطاب لأهل مكة على سبيل التذكير ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينغروا تعلقوا باستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف ، وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للعاني . . . (٢) .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة التي افتتحت بنداء المؤمنين ، قد أمرتهم بالثبات عند لقاء الأعداء . . . وبيّنت لهم جواف من مظاهر فضل الله عليهم ، ورعايته لهم . . . ورغبت المشركين في الانتهاء عن شركهم وعن محاربتهم للحق ، وحذرتهم من التماهي في باطلهم وطغيانهم . . . وأخبرتهم في ختامها بأن الله - تعالى - مع المؤمنين بتأييده ونصره . ثم وجهت السورة الكريمة نداء ثانياً إلى المؤمنين ، أمرتهم بطاعة الله ورسوله ، ونهتهم عن التشبه بالكافرين وأمثالهم من المنافقين

فقال - تعالى - : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ

يٰٓأَمِنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا حق الإيمان ، أطيعوا الله ورسوله في كل أحوالكم ، ولا تقولوا عنه ، أى ولا تعرضوا عنه ، فإن في إعراضكم عنه خسارة عظيمة لكم في دنياكم وآخرتكم .

قال الألوسي : وأعيد العدمير إليه - يُطِيعُ - ، لأن المقصود طاعته ، وذكر طاعة الله - تعالى - توطئة لطاعته ، وهى مستلزمة لمطاعة الله - تعالى - ، لانه مبلغ عنه ، فكان الرجوع إليه - يُطِيعُ - كالراجع إلى الله - تعالى - ، (١) .

وقوله : ذواتهم يسمعون ، بجملة حالية مسوقة لتأكيد وجوب الانتماء عن التولى مطلقا ، لا لتقييد النهى عنه بحال السماع .

أى أطيعوا الله ورسوله - أيها المؤمنون - ولا تقولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواظظ الزاجرة عن مخالفته . وقوله : ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، تأكيد لما قبله ، ونهى لهم عن التشبه بالاضالين .

أى أطيعوا الله ورسوله في كل أحوالكم عن إخلاص وإذعان ، ولا تقصروا في ذلك في وقت من الأوقات ، وإياكم أن تنشبوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادعوا السماع فقالوا سمعنا ، والحال أنهم لم يسمعوا سماع تدبر والعاظ ، لأنهم لم يصدقوا ما سمعوه ، ولم يتأثروا به . بل نبذوه وراء ظهورهم .

فالمنى في قوله - تعالى - : وهم لا يسمعون ، سماع خاص ، وهو سماع التدبر والاعتماظ . لكنه جىء به على سبيل الإطلاق ، للإشعار بأنهم قد نزلوا منزلة من لم يسمع أصلا ، يجعل سماعهم بمنزلة العدم ، حيث أنه سماع لا وزن له ، ولا فائدة لهم من ورائه ، مع أنهم لو فتحوا آذانهم وقلوبهم للحق لاستفاحوا ، ولصحتهم آثاروا الفنى على الرشد .

ثم وصف - سبحانه - الكفار والمنافقين وأهباهم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم ، فقال - تعالى - : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . . . »

والدواب : جمع دابة وهي كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى - : « وألق خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع . . . » (١) .

قال الجبل : « وإطلاق الدابة على الإنسان لما ذكره في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدمياً ، وفي المصباح : الدابة كل حيوان في الأرض موزاً أو غير مميز ، (٢) وقد روى أن هذه الآية نزلت في نفر من بني عبد الدار ، كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد ، فقتلوا جميعاً يوم بدر . وهذا لا يمنع أن الآية الكريمة يشمل حكمها جميع المشركين والمنافقين ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والمعنى : إن شر ما يدب على الأرض عند الله ، أى : في حكمه وقضائه ، هم أولئك الصم ، عن سماع الحق ، البكم ، عن النطق به ، الذين لا يعقلون ، أى لا يعقلون التمييز بينه وبين الباطل .

ووصفهم - سبحانه - بذلك مع أنهم يسمعون وينطقون ، لأنهم ينتفخوا بهذه الحواس ، بل استعملوها فيما يضر ويؤذى ، فكان وجودها فيهم كعدمها . وقدم الصم على البكم ، لأن صممهم عن سماع الحق متقدم على بكمهم فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له ، كما أن النطق به من فروع سماعه .

وقوله « الذين لا يعقلون » ، تحقيق لكالي - وه - حالهم ، لأن الأصم الأبكم

(١) سورة النور الآية ٤٥

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٦ .

إذا كان له عقل ربما فهم بعض الأمور . أما إذا كان بجانب صممة وبكمه قافد للعقل ، فإنه في هذه الحالة يكون قد بلغ الغاية في سوء الحال . .

قال صاحب المنار : وقوله : « الذين لا يعقلون ، أى : فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ لو عاقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ، ولو سمعوا لَنطقوا ربيّنوا ، وتذكروا وذكروا . . فهم لفقدوا منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى . . بل هم شر من ذلك لأنهم أعطيت لهم المشاعر والقوى فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله لأجله ، فهم كما قال الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا المكرمة فكانهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد فكانهم رزقوا وما رزقوا

ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم في آية الأعراف وآيتى البقرة ، لأن المقام هنا مقام تعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن ، (١) .

وقوله — تعالى — « ولو علم الله فيهم خيرا لَأَسْمِعَهُمْ . . . » بيان لما جبلوا عليه من إيثار النفى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : ولو علم الله — تعالى — فى هؤلاء الصم البكم خيرا ، أى : استعدادا للإيمان ورغبة فيما يصلح نفوسهم وقلوبهم « لَأَسْمِعَهُمْ » سماع تفهم وتدبر ، أى : لجعلهم سامعين للحق ، ومستجيبين له ، ولما كنته — سبحانه — لم يعلم فيهم شيئا من ذلك . فحجب خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم .

ولذا قال — تعالى — بعد ذلك : « ولو أَسْمِعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ معرضون ، أى : ولو أَسْمِعَهُمْ سماع تفهم وتدبر ، وهم على هذه الحالة العارضة من كل خير لتَوَلَّوْا عما سمعوه من الحق » وهم معرضون ، عن قبوله جمودا وعنادا . قال الفخر الرازى : قوله — تعالى — « ولو علم الله فيهم خيرا لَأَسْمِعَهُمْ

حول أسماعهم لتولوا وهم معرضون، أى : أن كل ما كان حاصلًا ، فإنه يجب أن يعلمه الله ، فقدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه ، فلا جرم حسن التعبير من عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده ، وتقدير الكلام : لو حصل فيهم خيراً لأسمعهم الله الحجج والمواظظ سماع تعليم وتفهم ، ولو أسمعوهم بعد أن علم أنه لاخير فيهم لم ينتفعوا بها ، وتولوا وهم معرضون ، (١) .
ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين فداء ثالثاً أمرهم فيه بالاستجابة لتعاليمه ، وحذرهم من الأقوال والأعمال التي تكون سبباً في عذابهم ، وذكرهم بجواب من منته عليهم ، فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَنِ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
والرسول . . . هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف ، والاستجابة :
الإجابة . . . قال الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندى فلم يستجيبه عند ذلك مجيب (٢)
أى : فلم يجبه عند ذلك مجيب .

(١) تفسير الفخر الرازي ٥ ص ١١٤

(٢) القرطبي ٧ ص ٢٨٩

وكان الإمام القرطبي يرى أن السين والتاء في قوله: «استجبوا» زائدتان -
ولعل الأحسن من ذلك أن تكون السين والتاء للطلب، لأن الاستجابة
في الإجابة بنشاط و«حسن استعداد».

وقوله: «لما يحييكم»، أي لما يصلحكم من أعمال البر والخير والطاعة، التي
وصلكم متى تمسكنم بها إلى الحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، وإلى السعادة
لتي ليس بعدها سعادة في الآخرة.

وهذا المعنى الذي ذكرناه لقوله: «لما يحييكم»، أدق مما ذكره بعضهم من
أن المراد بما يحييهم القرآن، أو الجهاد، أو العلم... إلخ.
وذلك، لأن أعمال البر والخير والطاعة تشمل كل هذا.

والمعنى: «يا أيها الذين آمنوا، بالله حق الإيمان، «استجبوا لله وللرسول،
من طواعة واختيار، ونشاط وحسن استعداد، إذا دعاكم، الرسول -
صلى الله عليه وسلم - «لما يحييكم، أي: إلى ما يصلح أحوالكم، ويرفع
درجاتكم، من الأقوال النافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتفكك بها تصيرون
حياة طيبة، وتظفرون بالسعادات: الدنيوية والآخروية.

والضمير في قوله: «دعاكم»، يعود إلى الرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لأنه هو المباشر بالدعوة إلى الله، ولأن في الاستجابة له لمستجابة لله - تعالى -
قال - سبحانه - : «من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن أقول فما
أرسلناك عليهم حفيظاً» (١).

وقوله: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» تحذير لهم من الغفلة
عن ذكر الله، وبعث لهم على مواصلة الطاعة له - سبحانه - .
وقوله: «يحول» من الحول بين الشيء والشيء، بمعنى الحجز والفصل بينهما.
قال الراغب: أصل الحول تفهم الشيء وانفصاله عن غيره، وباحتيار

الخنزير قيل حال الخنزير يحول حذولا واستحال تنهيا لأن يحول ، وباعتبار
الاتصال قيل حال بيني وبينك كذا . . . أى فصل . . . (١)

هذا ، وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال متعددة أهمها قولان :
أما القول الأول فهو أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه - كما يقول
ابن جرير - : أنه - سبحانه - أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم
وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك شيئا من إيمان أو كفر ،
أو أن يعى به شيئا ، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشئته ، وذلك أن الحول بين
الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما ، وإذا حجز - جل ثناؤه - بين عبد
وقلبه فى شيء أن يدركه أو يفهمه ، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه
إدراكه سبيل ، وإذا كان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال : يحول بين
المؤمن والكافر ، وبين الكافر والإيمان .

وقول من قال : يحول بينه وبين عقله . وقول من قال : يحول بينه وبين
قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . . . فالخبر على العموم
حتى يخصصه ما يجب التسليم له ، (٢) وقد رجح ابن جرير هذا القول بعد
أن ذكر قبله بعض الأقوال الأخرى .

وقال ابن كثير - بعد أن لخص القول الذى رجحه ابن جرير - : وقد
وردت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - بما يناسب هذه الآية ، ومن
ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذى عن أنس بن مالك قال : كان النبى
- ﷺ - يكفر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . . .
قال فقلنا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال :
نعم ، إن للقلوب بين أصبعين من أصابع الله - تعالى - بقلبيها . . .
وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله - ﷺ -
يقول : إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ،

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١٣٧ (٢) تفسير ابن كثير ج ٩ ص ١٧٠

يصرفها كيف شاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : د اللهم يا مصرف
القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك ،

وروى : الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن النواص بن سميان الكلبي
قال : سمعت النبي - ﷺ - يقول : ما من قلب إلا وهو بين إصبعين
من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن
يزيغه أزاغه ، (١) .

أما القول الثاني فهو أن المراد بالحيولة بين المرء وقلبه - كما يقول
الزمخشري - : أنه - سبحانه - يمت المرء فتغفقه للفرصة التي هو واجدها ،
وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلاؤه ، وردده سليما كما يريد
الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله ، (٢) .
أو - كما يقول الفخر الرازي - بعبارة أوضح : د أن المراد أنه - تعالى -
يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريد به بقلبه ، فإن الأجل بحول دون الأمل .
فكانه قال : بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم
من توقع طول البقاء ، فإن ذلك غير موثوق به . وإنما حسن إطلاق لفظ
القلب على الآماني الحاصلة في القلب ، لأن تسمية الشيء باسم ظرفه جائزة
كقولهم : سأل الوادي ، (٣) .

والذي فراه أن القول الثاني أولى بالقبول ، لأن الآية الكريمة ساقته
لخص المؤمنين على سرعة الاستجابة للحق الذي دعاهم إليه رسولهم ﷺ
والذي باتباعه يحيمون حياة طيبة . وتفكيرهم بيوم الحساب وما فيه من
ثواب وعقاب ، كما قال - تعالى - في ختامها د وأنه إليه تحشرون ، .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٨ - باختصار يدير -

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٤٨ - وقد ذكر (بضمه) أقواله

غير هذا القول فراجع إن شئت .

وليس مسوقة لإثبات قدرة الله ، وأنه أملك القلوب عباده منهم : وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء .

فالمعنى الذى ذكره ابن جرير - وتابعه عليه ابن كثير وغيره ، معنى وجيه فى ذاته ، إذ لا ينكر أحد أن الله مقلب القلوب ومالكها . . . ولكن ليس مناسبة هنا مناسبة المعنى الذى ذكره الزمخشري والرازي ، لأن الآية التى معنا والتى بعدها صريحتان فى دعوة المؤمنين إلى الاستجابة للحق قبل أن يفاجئهم الموت ، وقبل أن تحمل بهم مصيبة لا تصيب الظالمين منهم خاصة . والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول ، بعزيمة صادقة ، وسرعة فائقة ، وإذا دعاكم ، الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما يحيبكم ، أى لما به يحيون حياة طيبة من الأقوال والأعمال الصالحة واعلموا ، علمًا يقينا ، أن الله يحول بين المرء وقلبه ، أى يحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبه من شهوات الدنيا ومتعها ، فكم من إنسان يؤمل أنه سيفعل كذا غدا ، وسيجمع كذا فى المستقبل ، وسيحصل على كذا قريباً . . ثم يحول الموت ويفصل بينه وبين آماله وأمانيه . . فبادورا إلى اغتنام الأعمال الصالحة من قبل أن يفاجئكم الموت .

وقوله : وأنه إليه تحشرون ، تذييل قصده تذكيرهم بأحوال يوم القيامة . والضمير فى قوله : وأنه ، يعود إلى الله - تعالى - أو هو ضمير الشأن . أى : وأنه - سبحانه - إليه وحده ترجعون لا إلى غيره ، فيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم ، ويجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر . فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جمعت بين الرغبة فى العمل الصالح بسرعة ونشاط ، وبين التهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله .

ثم يؤكّد - سبحانه - بعد ذلك تهيبه لهم من التراخي فى تغيير المنكر فيقول : واثقروا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ، والفتنة : من الفتن . وأصله - كما يقول الرافى - : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداوته . واستعمل فى إدخال الإنسان النار

كأن قوله - تعالى - : ذوقوا فنتنكم ، أى : عذابكم . وتارة يسمون
 بما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه نحو قوله - تعالى - : : ألا في الفتنة
 سقطوا . . وتارة في الاختبار نحو قوله - تعالى - : وفتناك فتونا ، (١) .
 والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوى ، كالأعراض ، والفحط ،
 واضطراب الأحوال ، وتسلط الظلمة ، وعدم الأمان . . وغير ذلك من المحن
 والمصائب والآلام التى تنزل بالناس بسبب غفياهم الذنوب ، وإقرارهم
 للمنكرات ، والمداينة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .
 والخطاب لجميع المؤمنين فى كل زمان ومكان .

فالمعنى : دأبوا أى المؤمنون على طاعة الله بقوة ونشاط ، واحذروا
 من أن ينزل بكم عذابا سيعم عند نزوله الأخيار والفجار والمسيئين .
 وقوله ، واعلموا أن الله شديد العقاب ، المراد منه الحث على لزوم
 الاستقامة خوفا من عقاب الله - تعالى - .

أى : واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ، وانتهك حرمانه .
 قال صاحب الكشف : وقوله : لا نصيب ، لا يخلو من أن يكون
 جواباً للأمر ، أو نهياً بعد أمر ، أو صفة لفتنة .

فإذا كان جواباً فالمعنى : إن أصابتكم لا نصيب الظالمين منكم خاصة
 ولكنها تعمكم . . . وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً
 أو عقاباً ، ثم قيل : لا تعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله -
 الجميع وليس - من ظلم منكم خاصة .

فإن قلت : كيف جاز دخول النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟
 قلت : لأن فيه معنى للنهى - ومتى كان كذلك جاز إدخال النون المؤكدة -

كما إذا قلت : إنزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحنك، ومنه قوله - تعالى - :
 « يا أيها الملأ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » (١) .
 وقوله « خاصة » منصوب على الحال من الفاعل المستكن في قوله
 « لا نصيب » . ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف . والتقدير :
 إصابة خاصة .

هذا ، وقد دلت الآية الكريمة على وجوب الإفلاع عن المعاصي ،
 ووجوب عارضة مرتكبها ، فإن الأمة التي تشيع فيها المعاصي والمظالم
 والمنكرات . . . ثم لا نجد من يهاجها ويعمل على إزالتها ، تستحق العقوبة
 جزاء سكوتها واستغنائها وجبتها . .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق بعض
 الصحابة الذين اشتركوا في واقعة الجمل فيها بعد . . .

ولكن هذا القول لا تستسيغه ولا تؤيده ؛ لأن الآية الكريمة
 مخاطبة للمؤمنين جميعاً في كل زمان ومكان . وأمرهم بالبعد عن المعاصي
 والمنكرات التي تفضي بهم إلى العذاب الدنيوي قبل الآخروي . وليست
 خاصة بفريق دون فريق .

لذا قال ابن كثير : والقول بأن هذا التحذير بمصاحبة وغيره هو
 الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن .
 ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عدي بن عميرة قال : سمعت
 رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - تعالى - لا يعذب العامة
 بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ،
 فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢١١ - يتصرف يسير -

(م ٧ - سورة الأنفال)

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جرير بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال :
« ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي وهم أحرصوا أكثر من يملون ، ثم لم ينجسوه ،
إلا عذبهم الله بعقاب » (١) .

وقال الإمام القرطبي : قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا
المنكر بين أظهرهم فيعذبهم العذاب . .

ففي صحيح مسلم عن زينب جحش أنها سألت رسول الله - ﷺ -
فقلت له : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا
كثرت الخبيث » .

وفي صحيح الترمذي : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه ،
أو شك أن يعذبهم الله بعقاب من عنده » .

وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي - ﷺ -
قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا - أي
اقتسموا - على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين
في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في
نصيبنا خرقتنا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ،
وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة .

قال علاؤنا : فالفتنة إذا عمت هلك لكل وذلك عند ظهور المعاصي ،
وافتشار المنكر وعدم التغيير . وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين
لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والحرب منها . . .

روى ابن وهب عن مالك قال : تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر
بجوارها ولا يستقر فيها .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٩ - وهناك أحاديث أخرى ذكرها
في هذا فراجعها إن شئت .

واحجج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فاجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . . .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى - ولا تزر وازرة وز أخرى ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، - وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما يتعلق العقوبة بصاحب الذنب ؟

فالجواب | أن للناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكنت عليه فكأنهم طاص ، هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه الراضي بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة ، (١) .

وقال بعض العلماء : وذكر القسطلاني د أن علامة الرضا بالمنكر عدم التأم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارها له ، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده . فكل من لم يكن بهذه الحالة ، فهو راض بالمنكر ، فتعمم العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار ، (٢) .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالاستجابة له ونههم عن الوقوع في المعاصي . . أخذ في تذكيرهم بجانب من فضله عليهم فقال : واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس
أي : واذكروا ، يا معشر المؤمنين ، إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض أي : وقت أن كنتم قلة مستضعفة في أرض مكة تحت أيدي كفار قريش ، أو في أرض الجزيرة العربية حيث كانت الدولة لأفركم من الفرس والروم .
وقوله : و تخافون أن يتخطفكم الناس ، أي : تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذا سريعا . لقوتهم وضعفكم . يقال خطفنه يخطفه - من باب تعب - أي : استلبه بسرعة .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٩٧٧ .

والمراد بالتفكير في قوله: «اذكروا»، أن يتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نعم الله، وأن يداوموا على شكرها حتى يزيدهم - سبحانه - من فضله. و«إذ» ظرف بمعنى وقت. و«أنتم» مبتدأ، أخبر عنه بثلاثة أخبار بعده وهي: قليل، ومستضعفون، وتخافون.

والمراد بالناس: كفار قريش، أوهم وغديرهم من كفار العرب والفرس والروم.

وقوله: «فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات»، بيان لما من به عليهم من نعم بعد أن كانوا محرومين منها:

أى: اذكروا وقت أن كنتم قلة ضعيفة مستضعفة تخشى أن يأخذها أعداؤها أخذا مربعا، فرفع الله عنكم بفضل هذه الحال، وأبدلكم خيرا منها، بأن آراكم إلى المدينة، وألف بين قلوبكم بامعشر المهاجرين والأنصار. وأيدكم بنصره، في غزوة بدر، وقذف في قلوب أعدائكم الرعب منكم. ورزقكم من الطيبات، أى: ورزقكم من الغنائم التى أحلها لكم بعد أن كانت محرمة على الذين من قبلكم، كما رزقكم - أيضا - بكثير من المطاعم والمشارب الطيبة التى لم تكن متوفرة لكم قبل ذلك.

وقوله: «لعلكم تشكرون»، تذييل قصد به حضمهم على مداومة الشكر والطاعة لله - عز وجل - أى: نفعكم الله - تعالى - من الشدة إلى الرخاء، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الفقر إلى الغنى... حتى تستمروا على طاعة الله وشكره، ولا يشغلكم من ذلك أى شاغل.

قال ابن جرير: قال قتادة في قوله - تعالى - «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض»...

«كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه هيبا، وأجره»

بطونا ، وأهراء جلودا ، وأبينه ضللا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلان حاضرا أهل الأرض يومئذ كانوا أشرف منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فكان به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس . فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله - تعالى - (١) .

وبذلك يرى أن هذه الآيات الثلاثة قد جمعت بين الترغيب والترهيب والتحذير ... الترغيب كما في قوله - تعالى - : «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول ...»

والترهيب كما في قوله - تعالى - : «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ...»

والتذكير كما في قوله - تعالى - : «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ...»

وبالترغيب في الطاعات ، وبالترهيب من المعاصي ، وبالتذكير بالنعمة ، ينجح الدعاة في دعوتهم إلى الله .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء رابعا وخامسا إلى المؤمنين فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا

اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْسَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ

أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢٠ .

روى المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا لا تخفونوا ، روايات منها :

ما جاء عن ابن عباس من أنها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة فقالوا له : يا أبا لبابة ماترى ؟ أنزل على حكم سعد بن معاذ فينا ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه . أى أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح فلا تنزلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي - عن مكانهما - حتى علمت أني قد خذت الله ورسوله . . .

ومنها ما جاء عن جابر بن عبد الله من أنها نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطالعه على سر من أسر من أسرار المسلمين .

ومنها ما جاء عن السدي من أنها نزلت في قوم كانوا يسمعون الشيء من النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم يحدثون به المشركين . (١) .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ؛ فإن الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو المعتمد عند الجاهل من العلماء .

وقوله : لا تخفونوا ، من الخون بمعنى النقص . يقال خونه تخويناً أى : نسبه إلى الخيانة ونقصه .

قال صاحب الكشف : معنى الخون : النقص ، كأن معنى الوفاء التمام . ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه . وقد استعمل فقيل : خان الدلو الكرب - والكرب جبل يشد في رأس الدلو - وخان المشتار السبب - والمشتار مجتنى العسل والسبب الحبل - لأنه إذا انقطع به فمكانه لم يبق له (٢)

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢١ . وتفسير الفخر الرازي

ص ١٥٠ ص ١٥١ ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢١٣ .

والمقصود بحياة الله : ترك فرائضه وأوامره التي كلف العباد بها ،
حوادثها حرمانه التي نهى عن الاقتراب منها .

والمقصود بحياة الرسول - ﷺ - : إهمال سنته التي جاء بها
وأمرنا بالتقيد بتعاليمها .

المقصود بالأمانات : الأسرار والعهود والودائع وغير ذلك من الشئون
التي تكون بينهم وبين غيرهم مما يجب أن يحصان ويحفظ .

والمعنى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ، بأن تهملوا فرائضه ،
وتعدوا حدوده ، ولا تخونوا الرسول ، ﷺ ، بأن تتركوا سنته
وتنصرفوا إلى غيرها » وتخالفوا ما أمركم به وتجتروا ما نهاكم عنه ،
ولا تخونوا أماناتكم ، بأن تفشوا الأسرار التي بينكم ، وتنقضوا العهود
التي تعاهدتم على الوفاء بها ، وتنكروا الودائع التي أودعها لديكم غيركم ،
وتستبيحوا ما يجب حفظه من سائر الحقوق المادية والمعنوية ، فقله :
« وتخونوا أماناتكم ، معطوف على قوله « لا تخونوا » .

وأعاد النهي للإشعار بأن كل واحد من المنهي عنه مقصود بذاته اهتماما به .
وقوله : « وأنتم تعلمون ، الواو للحال ، والمفعول محذوف . أى . والحال
أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله والأمانات التي ائتمن عليها ،
فعليناكم أن تتجنبوا الخيانة في جميع صورها ؛ لتألوأرضى الله ومشوبته .
ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي
الاقدام على الخيانة ، نبه - سبحانه - إلى ذلك فقال : « وأعلموا إنما
أمرناكم وأولادكم فتنه ، وأن الله عنده أجر عظيم » .

أى : وأعلموا - أيها المؤمنون - أنما أموالكم وأولادكم فتنه ، أى امتحان
واختبار لكم من الله - تعالى - ، ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه .

أما قوى الإيمان فلا يشغله ماله وولده من طاعة الله ، وأما ضعيف الإيمان

فيهذه ذالك من طاعة الله ، ويجعله يعيش حياته عبداً لما له ، ومطيعاً لمطالب أولاده حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافية مع تعاليم دينه وآدابه .

وقال صاحب المنار : الفتنه هي الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه ، أو قبوله أو إنكاره . .

وأموال الإنسان عليها مدار حياته ، وتحصيل رغائبه وشهواته ، ودفع كثير من المسكارة عنه ، فهو يتكاف في طلبها المشاق ، ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد الاعتدال في إنفاقها . .

وأما الأولاد فخبهم — كما يقول الأستاذ الامام — ضرب من الجنون . يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الامهات والآباء ، فيحملهم على بذل كل ما يستطيع بذله في سبيلهم . .

روى أبو ليلى من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : الولد ثمرة القلب . . وإنه مجبنة مبخله محزنة . . فحب الولد قد يحمل الوالدین على اقتراف الآثام . . وعلى الجبن ، وعلى البخل ، وعلى الحزن . .

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من وجوهه الحلال ، وإنفاقه في وجوهه المشروعة . . واتقاء خطر الفتنة الثانية باتباع ما أوجبه الله على الآباء من حسن تربيته الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنبهم أسباب المعاصي والرذائل ، (١) .

وقوله : وإن الله عنده أجر عظيم ، تذييل قصد به ترغيب المؤمنين في طاعة الله ، بعد أن حذرهم من فتنة المال والولد .

أى : وأعلموا أن الله عنده أجر عظيم لمن آثر طاعته ورضاه على جمع المال

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ٥٩٤ — بتصرف وتلخيص .

وحب الأولاد، فكونوا - أيها المؤمنون - من حزب المؤمنين لحب الله
على حب الأموال والأولاد لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة .

ثم ختم - سبحانه - نداءه للمؤمنين بهذا النداء الذي يهديها إلى سبيل الخير
والفلاح فقال - سبحانه - يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً،
ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم .

والفرقان في كلام العرب - كما يقول ابن جرير - مصدر من قولهم فرقت بين
الشيء والشيء أفرق بينهما فرقاً وفرقاً - أي أفرق وأفصل بينهما . . .

وقد اختلف أهل التأويل في العبارة عن تأويل قوله يجعل لكم فرقاناً .
فقال بعضهم : يجعل لكم مخرجاً . وقال بعضهم نجاتاً ، وقال بعضهم فصلاً
وفرقاً بين حقكم وباطل من يبيخكم للسوء من أعدائكم . . . وكل ذلك
متقارب المعنى ، وإن اختلفت العبارة . . . (١)

وقال الآلوسی : وفرقانا ، أي هداية ونورا في قلوبكم تفرقون به بين الحق
والباطل - كما روى ابن جرير وابن زيد - أو نصراً يفرق به بين الحق
والباطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين - كما قال الفراء - أو نجاتاً في
الدارين - كما هو كلام السدي - أو مخرجاً من الشبهات - كما جاء عن مقاتل
أو ظهوراً يشهر أمركم وينشر صيتكم - كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق -
من بهت أفل كذا حتى سطح الفرقان أي الصبح . وكل المعاني ترجع إلى الفرق
بين أمرين . وجوز الجمع بين المحققين الجمع بينهما (٢) ونحن مع هذا البعض من
المحققين في جواز الجمع من هذه المعاني فيكون المعنى : يا أيها الذين آمنوا
إن تتقوا الله ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يفضيه ، وتطيعوه في السر
والعلن ، يجعل لكم فرقاناً ، أي هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل
ونصراً تعلوا به كلتنكم على كلمة أعدائكم ، ومخرجاً من الشبهات التي تفاقم

(١) تفسير ابن جرير ٩ ج ص ٢٢٤ - بتصرف والمختص -

(٢) تفسير الآلوسی ٩ ج ص ١٩٦ .

النفوس ، ونجاة عما تخافون . . . وفضلا عن كل ذلك فإنه - سبحانه - يكفر عنكم سيئاتكم ، أى يسترها عليكم فى الدنيا ، ويغفر لكم ، أى : ويغفر لكم يوم القيامة ما فرط منكم من ذنوب بلفظه وإحسانه وقوله : « والله ذو الفضل العظيم » ، تدبيل قصد به التعليل لما قبله ، وللتنبية على أن ما وعد به - سبحانه - المؤمنين على تقواهم إنما هو تفضل منه لهم ، فهو - سبحانه - صاحب العطاء الجزيل ، والخير العميم . . لمن أطاعه واتقاه ، وصان نفسه عما يسخطه ويغضبه .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد رتب على تقواه على الخوف منه ، نعماء عظمى ، ومننا كبرى ، وأى نعم يتطلع إليها المؤمنون أفضل من هداية القلوب وتكفير الخطايا والذنوب ؟ .

اللهم لا تحرمنا من هذه النعم والمن بفضلك وإحسانك ، فأنت وحدك صاحب العطاء العميم ، وأنت وحدك ذو الفضل العظيم ، وأنت وحدك على كل شيء قدير . . .

وبعد : فنحن - أختى القارىء - لو استعرضنا سورة الأنفال من مطلعها إلى هنا ، لرأيناها تحدثنا -- على سبيل الإجمال - عن :

(أ) أحكام الأنفال ، وأن مرد الحكم فيها إلى الله ورسوله . .

(ب) وعن الصفات الكريمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون لينالوا مغفرة الله ورضوانه . .

(ج) وعن أحوال بعض المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وكانوا يفضلون العير على النفير . ولكن - الله تعالى - بين لهم أن الخير فيما قدره لا فيما يظنون . .

(د) وعن النعم والبشارات وأسباب النصر التى أمد الله بها المؤمنين فى بدر ، التى كان من آثارها ارتفاع شأنهم ، واندحار شأن أعدائهم . .

(هـ) وعن التوجيهات الحكيمة التى أعقبت تلك التبدلات الخمسة التى قادى

الله بها المؤمنين ، فقد أمرهم - سبحانه - بالثبات في وجه أعدائهم ، وبالطاعة
 وإتباعه له ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالأستجابة السريعة للحق الذي
 جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. ونهتهم عن التولي يوم الزحف ؛
 وعن التشبه بمن قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وعن إقرار المنكرات والبدع
 والرضا بها ، وعن خيانة الله والرسول ، وعن خيانة الأمانات التي يجب
 صيانتها والمحافظة عليها ...

ووعدهم - سبحانه - بهداية القلوب ، وتكفير الخطايا والذنوب ،
 متى اتقوه ووقفوا عند حدوده . .

(و) والآن ، وبعد هذا التوجيه الحكيم ، والناذيب القويم ، والتعليم
 النافع والتذكير بالنعم ، والتحذير من النقم . . ماذا نرى ؟

نرى السورة الكريمة تأخذ في تذكير المؤمنين بجوانب من جرائم أعدائهم
 فنقص عليهم ما كان من هؤلاء الأعداء من تأمر على حياة رسولهم - صلى الله
 عليه وسلم - ومن نهكم بالقرآن الكريم وادعاء أنهم في استطاعتهم أن يأثروا
 بمثله لو شاءوا ، ومن استهزاء بتعاليم الإسلام ، وسخرية بشعائره وعباداته
 من إنفاق أموالهم ليصدوا الناس عن الطريق الحق ، ومن إصرار على
 العناد والجحود جعلهم يستعجلون العذاب . .

ومع كل هذا فالسورة الكريمة تفتح الباب في وجوه هؤلاء الجاحدين
 المعاندين ، وتأمر المؤمنين أن ينصحوهم بالدخول في دين الله .. فإذا لم
 يستجيبوا لنصحتهم فدليهم أن يقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
 كله لله . .

اسمع - أخى الفارسي - بتدبر إلى الآيات التي تحكى كل ذلك
 بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
 الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ
 لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ
 إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ
 آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ

يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ
الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٤١﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ
بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٣﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٤٤﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ
النَّصِيرِ ﴿٤٥﴾

قال ابن كثير ، عن ابن عباس في قوله : وإذ يملكك الذين كفروا ،

أنه قال : تشاورت قريش ليلة بمكة - في شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر، وأن خبرهم قد آمن به - فقال بعضهم إذ ذاك أصبح فأثبتوه بالوثاق . وقال بعضهم بل اقتلوه . وقال بعضهم بل أخرجوه . ثم اتفقوا أخيراً على قتله - ، فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك ، وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، فأمر النبي - ﷺ - علياً أن يبيت مكانه ففعل . وخرج النبي - ﷺ - حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي - ﷺ - فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لا أدري فافتصوا أثره ، فلما باغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فكث فيه ثلاث ليال . وقد ذكر ابن كثير وغيره روايات أخرى تتعلق بهذه الآية ، إلا أننا نكتفي بهذه الرواية ، لإفادتها للمطلوب في موضوعنا ، ولأن غيرها قد اشتمل على أخبار أسكرها بعض المحققين ، كما أسكرها ابن كثير نفسه (١) .

وقوله : « وإذ يمكر . . . » تدكير من الله - تعالى - لنبيه للمؤمنين ببعض نعمه عليهم ، حيث نجى نبيه - ﷺ - من مكر المشركين حين تأمروا على قتله وهو بينهم بمكة . قال ابن جرير : أنزل الله على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة سورة الأنفال ، يذكره نعمه عليه - ومن ذلك قوله - تعالى - « وإذ يمكر بك الذين كفروا . . . الآية » (٢) .

وقوله : « يمكر ، من الم - ك - ر ، وهو - كما يقول الراغب - صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بمكره فعلاً جميلاً ومنه قوله - تعالى - « والله خير الماكرين » . ومكر مذموم ، وهو أن يتحرى بمكره فعلاً قبيحاً ، ومنه قوله - تعالى - « وإذ يمكر بك الذين كفروا . . . » وقال

(١) راجع التفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٢ وتفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢٦

(٢) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢٨ .

وقال — سبحانه وتعالى — في الأمرين : « ومكروا ، مكروا ، مكروا » لا يشعرون ، (١)

وقوله : « ليثبتوك ، أي ليحبسوك . يقال أثبتته إذا حبسته .
والمعنى : واذا كر — يا محمد — وقت أن نجيتك من مكر أعدائك ، حين
تأمروا عليك وأنت ين أظهرهم في مكة ، لكي يثبتوك ، أي : يحبسوك في
في دارك ، فلا تتمكن من لقاء الناس ومن دعوتهم إلى الدين الحق أو يقتلوك ،
بواسطة مجموعة من الرجال الذين اختلفت قبائلهم في النسب ، حتى يتفرق
دمك فيهم فلا تقدر عميرتك على الأثر الأخذ بشارك من هذه القبائل المتعددة ..
« أو يخرجوك ، أي : من مكة منفيا مطاردا حتى يحولوا بينك وبين
لقاء قومك .

وقوله : « يكرون ويمكرون » والله خير الماكرين ، بيان لموضع
النعمة والمنة ، أي : والحال أن هؤلاء المشركين يكرون بك وبأتباعك
المكر السيئ ، والله — تعالى — يرد مكرهم في نحورهم ، ويحبط كيدهم ،
ويجيب سعيهم ، ويعاقب عليه عقابا شديدا ، ويدبر أمرك وأمر أتباعك ،
ويحفظكم من شرورهم ، فهو — سبحانه — أقوى الماكرين . وأعظمهم
تأثيرا ، وأهلهم بما بما يضر منه وما ينفع .

قال الألوسي : قوله « يكرون ويمكرون » أي : يرد مكرهم ويجعل
وخامته عليهم ، أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين ، وذلك بأن
أخرجهم إلى بدر ، وقال المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا
منهم ما يقرب منه الوليد .

« والله خير الماكرين ، إذ لا يعتد بمكرهم عند مكر — سبحانه — .
وإطلاق هذا المركب الإضافي عليه — تعالى — إن كان باعتبار أن مكره
— سبحانه — أنفذ وأبلغ تأثيرا فالإضافة للتفصيل ، لأن المكر الغير أيضا —

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٤٧١ الرأغب الأصفهاني - يتصرف يسير

نفو ذأو تأثير آف الجملة . . . وإن كان باعتبار أنه سبحانه لا ينزل إلا الحق ولا يصيب إلا ما يستوجب المذكور به ، فلا شركة لمكر الغير فيه ، وتكون الإضافة حينئذ للاختصاص ، لانتفاء المشاركة . . . (١) هذا والصورة التي رسمها قوله - تعالى - : « ويمكرون ويمكر الله ، صورة عميقة للتأثير ، ذلك حين تتراعى للخيال فدوة قریش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من روائهم محيط ، ويمكرهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون . إنها صورة ساخرة ، وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة . . . فأين هؤلاء لبشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة . . . قدرة الله الجبار ، القاهر نوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شيء محيط ؟

والتعبير القرآنى برسم الصورة على طريق القرآن الفريدة فى التصوير ، يهزجها القلوب ، ويحرك بها أعماق الشعور ، (٢)

ثم حكى القرآن بعد ذلك جانباً من الدعاوى الكاذبة التى تقوه بها المشركون فقال - تعالى - « إذا تولى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . . »

وقد ذكر كثير من المفسرين أن القائل لهذا القول : النضر بن الحارث ؛ إنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم . . . ولما دم مكة ووجد رسول الله ﷺ يتأثر القرآن قال للمشركين : لو شئت قللت مثل هذا ، وكان - ﷺ - إذا قام من مجلس ، جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث المشركون بأخبار ملوك الفرس والروم ، وغيرهم ثم قال : أبنا أحسن قصصاً ؟ أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله منه يوم بدر ، فقد سره المقداد بن عمرو ، فأمر - ص - بضرب عنقه وقال فيه : « إنه كان يقول فى كتاب الله - عز وجل - ما يقول ، (٣) . »

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٩٨

(٢) من « فى ظلال القرآن » ج ٩ ص ٨٤٤ للأستاذ سيد قطب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٤ بتصرف وتلخيص .

وأُسند - سبحانه - قول النضر إلى جميع المشركين ، لأنهم كانوا أراضين بحوله ، ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية .

والأساطير - كما يقول ابن جرير - : جمع أسطر ، وهو جمع الجمع ، لأن واحد الأسطر سطر . ثم يجمع السطر : أسطر وسطور ، ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر . وقد كان بعض أهل العربية : واحد الأساطير : أسطورة - كالحديث وأحدوثه (١) - والمراد بها : تلك القصص والحكايات التي كتبها الكافرون عن القدماء ، والتي يغلب عليها طابع الخرافة والنخيلات التي لا حقيقة لها .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذب والتفادى في الطغيان ، أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الله ، قالوا ، بصفافة ووفاة : قد سمعنا ، أى : قد سمعنا ما قرأه علينا - يا محمد - ووعيناها ولو نشاء . لقلنا مثل هذا ، أى لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد ما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التي سطرها بعضهم عنهم وليس من عند الله - تعالى - ولا شك أن قولهم هذا يدل على تعمدهم الكذب على أنفسهم وعلى الناس فإن هذا القرآن - الذي زعموا أنهم لو شاءوا لقالوا مثله - قد تدام في نهاية المطاف أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وانقلبوا خاسرين .

والذي فعمقده أن قولهم هذا ، ما هو إلا من قبيل الحرب النفسية التي كانوا يشنونها على الدعوة الإسلامية ، بقصد تضليل البسطاء ، والوقوف في وجه تأثير القرآن في القلوب ، ولحاولة طمس معالم الحق ولو إلى حين . ولكنهم لم يفلحوا . فإن نور الحق لا تحجبه الشبهات الزائفة ، ولا يعدم الحق أن يجد له أنصاراً حتى من أعدائه ، يكفي هنا أن نستشهد بما قاله الوليد ابن المغيرة في وصف القرآن الكريم : « إنه له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفل له مغدق ، وإن أعلاه لمثمر .. وما يقول هذا بشر » .

(١) تفسير ابن جرير ٩ ج ٢٣١ - (م ٨ - سورة الأنفال)

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لقوله تعالى - ولو نشاء -
لنأمتل هذا... : نفاجة منهم وصاف تحت الراعدة ، فإنهم لم يتوانوا في مشيبتهم
سأعتهم الاستطاعة ، وإلا فما منهم إن كانوا مستطيعين أن يهاؤوا غلبة
، تحداهم وقرهم بالهـ . وحتى يقولوا بالقدم المعلى دونه ، مع فرط أنفتهم ،
استنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة . . . (١) .

ثم تمضي السورة في حديثها عن ردائل مشركي قريش ، فتحكي لنا هجيبا
، ألوان عنادهم ، وجحودهم للحق . فتقول : : وإذ قالوا اللهم إن كان هذا
والحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . . .
وقائل هذا القول : النضر بن الحارث صاحب القول السالف لو نشاء
لنأمتل هذا . . . ، ذكر ذلك عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير .

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أن قائل ذلك : أبو جهل بن همام .
أخرجه ابن جرير عن بن رومان ومحمد بن قيس أن قريشا قال بعضهم
مض : أكرم الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - من بيننا اللهم إن كان هذا
والحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء (٢) .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا
بلكار أن القرآن من عند الله ، وأن محمدا قد جاءهم بالحق . . بل أضافوا
، ذلك قولهم : اللهم إن كان هذا الذي جاءنا به محمد بن قرآن وغيره هو الحق
نزل من عندك ، فعاقبنا على إنكاره والكفر به ، بأن تنزل علينا حجارة
، السماء . ثم لا يكتفوا . أو تنزل علينا عذابا أليما يقضى علينا .

قال الجمل : قوله : : هو الحق ، قرأ العامة الحق بالنصب على أنه خير الكون
لفظ هو ، لفصل . . وقرأ الأعمش وزيد بن علي : الحق ، بالرفع ووجهها
أمر برفع لفظ هو ، على الابتداء ، والحق خبره ، والجملة خير الكون ، (٣) .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢١٦ وقوله : : نفاجة ، أي : متكبر ، والصاف
فرور ومجاوزة الحد ، والراعدة السحابة . وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم
يعمل شيئا (٢) نفسه الألوسي ج ٩ ص ١٩٩ (٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٤٢ -

وفي إطلاقهم الحق ، على ما جاء به الرسول ﷺ ، وجعله من عند الله ؛ ثمكم بمن يقول ذلك سواء أكان هذا افتعال - رسول صلى الله عليه وسلم - أو المؤمنين .

وأل فيه للعهد : أى الحق الذى أدهى محمد أنه جاء به من عند الله .

وقوله : « من السماء » متعلق بمحذوف صفة لقوله « حجارة » . وقائدة هذا الوصف الدلالة على أن المراد بها حجارة معينة مخصوصة لتعذيب الظالمين .

قال صاحب الكشف : وهذا أسلوب من الجحود بليغ . يعنى إن كان القرآن هو الحق فعائنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعباد آخره ومرادهم نفي كونه حقاً ، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكروه عذاباً ، فكان تعليق للعذاب بكونه حقاً ، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالجهالة في قولك : إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء .

فإن قلت : ما قائدة قوله « من السماء » والأمطار لا تكون إلا منها ؟

قلت : كأنهم يريدون أن يقولوا : فأمطر علينا السجيل وهى الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل .

وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ : ما أجمل قومك حين لمكوا عليهم امرأة ، فقال الرجل : أجمل من قومي قومك ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ - حين دعاهم إلى الحق : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء .. » ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له (١) .

ولقد كان هذا الرجل حكيماً في رده على معاوية ، لأنه كان الأولى بأولئك المشركين أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه .. ولكن للمناد الجامع الذى استولى عليهم جماعهم يؤثرون الهلاك

على الإذعان للحق ويفضلون عبادة الأصنام على اتباع محمد - ﷺ - الذي دعاهم إلى عبادة الله وحده . . . وهكذا النفوس عندما تنغمس في الأحقاد وتبادى في الجحود . وتنفاد الأهواء والشهوات ، وتأخذها العزة بالإثم ، ترى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، وتؤثر العذاب وهي سادرة في باطلها ، على الخضوع للحق والمنطق والصواب .

ثم تعقب السورة على هذا الدعاء الغريب الذي حكته عن مشركي مكة ، فتبين الموجب لإمهم وعدم إجابة دعائهم فتقول : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . .

أى : وما كان الله مريداً لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك ، وأنت مقيم فيهم - يا محمد - بمكة ، فقد جرت سنته - سبحانه - ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين . واللام في قوله : ليعذبهم ، تأكيد للنفي ، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول - ﷺ - بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة .

والمراد بالاستغفار في قوله : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، استغفار من بقى بينهم من المؤمنين المستضعفين الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة بعد أن هاجر منها النبي - ﷺ - والمؤمنون .

أى : ما كان الله مريداً لتعذيبهم وأنت فيهم - يا محمد - وما كان - أيضاً - مريداً لتعذيبهم وبين أظهرهم بمكة من المؤمنين المستضعفين ممن يستغفر الله ، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرتها واللاحاق بك في المدينة .

قالوا : ويؤيد أن هذا هو المراد بالاستغفار قوله - تعالى - في آية أخرى : لو توبلوا لعذبنا الذين كفروا منهم هذا بالآية (١) ، أى : لو تميز

المؤمنون على الكافرين لعذابنا الذين كفروا عذابا أليما . وأسند - سبحانه - الاستغفار إلى ضمير الجميع ، لوقوعه فيما بينهم ، ولنزول ما صدر عن البعض منزلة ما صدر عن الكل . كما يقال : قتل أهل بلدة كذا فلانا والمراد بعضهم . ويرى بعضهم أن المراد بالاستغفار المذكور : استغفار الكفرة أنفسهم كقولهم : غفرانك في طوافهم بالبيت ، أو ما يشبه ذلك من معاني الاستغفار وكان هذا البعض يرى أن مجرد طلب المغفرة منه - سبحانه - يكون مانعا من عذابه ولو كان هذا الطلب صادرا من الكفرة .

ويرجح ابن جرير أن المراد بقوله : « وهم يستغفرون » نفي الاستغفار عنهم . فقد قال بعد أن ذكر بضعة آراء : وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال : تأويله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد ، وبين أظهرهم مقيم ، حتى أخرجك من بين أظهرهم ، لأنني لا أملك قرية وفيها نبيها ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم وكفرهم ، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك بل هم مصرون عليه ، فهم للعذاب مستحقون ... (١) . قال بعض المحققين : والقول الأول أبلغ لدلالته على أن استغفار الغير عما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

ثم قال : روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - ص - أنزل الله على أمانين لأمتي ، وما كان الله ليعذبهم ... الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة . قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي سعيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله - تعالى - فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني ، (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٩٨٧ طبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٥٨ م .

ثم بين - سبحانه - بعض الجرائم التي ارتكبها المشركون ، والتي جعلهم مستحقين لعذاب الله ، فقال - تعالى - : « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

والمعنى : وأى شيء يمنع من عذاب مشركي قريش بعد خروجك - بالحق - وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم ؟ إنه لا مانع أبداً من وقوع العذاب عليهم وقد وجد مقضيه منهم ، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد .

فلاستغفام في قوله « وما لهم » ، إنكارى بمعنى النفي . أى : لا مانع من تعذيب الله لهم وقوله « وهم يصدون عن المسجد الحرام » ، جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم الشنيعة . أى : لا مانع يمنع من تعذيبهم ، وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم بمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام ، ومن زيارته ، ومن مباشرة عباداتهم عنده . . . إنهم لابد أن يعذبوا على هذه الجرائم . ولقد أوقع الله بهم عذابه في الدنيا : ومن ذلك ما حدث لهم يوم بدر من قتل صناديدهم ومن أسر وجوهاتهم ، ومن كلتهم .

وأما عذابهم في الآخرة فهو أشد وأبقى من عذابهم في الدنيا .

وقوله : « وما كانوا أولياءه » ، رد على ما كانوا يقولونه بالباطل : نحن ولاية البيت الحرام ، فلنا أن نصدمن أنشاء عن دخوله ، ولنا أن نبيع لمن نشاء دخوله . أى : إن هؤلاء المشركين ما كانوا في يوم من الأيام أهلاً لولاية البيت الحرام بسبب شركهم وعداوتهم - لله تعالى - رب هذا البيت .

وقوله « إن أولياؤه إلا المتقون » ولكن أكثرهم لا يعلمون ، بيان للاستحقاق لولاية البيت الحرام ، بعد نفيا عن المشركين .

أى : إن هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً لولاية البيت الحرام ، وليدعوا أهلاً

لأن يكونوا أولياء الله تعالى - بسبب كفرهم وجحودهم، وإنما المستحق لذلك هم الملقون الذين صانوا أنفسهم عن الكفرو عن الشرك وعن ما يغضب الله، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم وتعمدهم في الجحود والخلل .

وقد جاءت جملة من أوليائه إلا الملقون ، مؤكدة بأقوى التأكيد ، لتفي كل ولاية على البيت الحرام سوى ولايتهم .

ونفي - سبحانه - العلم عن أكثر المشركين، لأن قلة منهم كانت تعلم لا ولاية لها على المسجد الحرام ولكنها كانت تجحد ذلك عناداً وغروراً أو أن المراد بالأكثر الكل ، لأن الأكثر حكم الكل في كثير من الأحكام كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزلة العدم .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان ضلال هؤلاء المشركين وجحودهم فقال : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

قال القرطبي ما ملخصه : قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبحرارة ، يصفقون ويصفرون ، فكان ذلك عبادة في ظنهم . .
والمكاء : الصفير . يقال مكأ يمكأ ومكوا ومكأ إذا صفر .

والتصدية : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدياً إذا صفق .

وقال قتادة : المكاء : طرب بالأيدي ، والتصدية : الصياح .

وعلى التفسيرين ففيه رد على الجملة من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ، وذلك كله مفكر يتنزه عن مثله العقلاء ، وبذلك فاعلة بالمشرك فيما كانوا يفعلونه عند البيت . . (١) .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين لم تكن صلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيقا صغيراً ، وهرجا ومرجالا وقار فيه ، ولا استعمار لحرمة البيت ، ولا خشوع دل الله - تعالى - . وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ولحرصهم أن يسيثروا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن ، أو وهو رف البيت ، أو وهو يؤدي شيئاً من شعائر الإسلام وعباداته . فقد حكى أن عنهم أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء . سمعوا الناس من سماءه . قال - تعالى - : وقال الذين كفروا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١) .

وروى ابن جرير أن ابن عمر حكى فعلهم ، فصفر ، وأمال خده وشفق يديه وقال مجاهد إنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - صلاته .

وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبي - صلى الله عليه وسلم - الطواف يسهمزون به ، يصفرون ويصفقون (٢) .

وقال الفخر الرازي : فإن قيل المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة يف جاز استثناءهما من الصلاة ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من الصلاة فخرج هذا الاستثناء على حسب معتقدهم .

الثاني : أن هذا كقولك : ودوت الأمير فجعل جفائي صلتى . أى : الجفاء مقام الصلاة فكذا هنا .

الثالث : الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له .

(١) سورة فصلت . الآية .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٤٠ .

كما تقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء . يريد من كان السخاء فيه فلا عيب له ، (١)

وقوله : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وعيد لهم على كفرهم وجحودهم ، واستهزائهم بشعائر الله .

أى : فذوقوا - أيها الضالون - العذاب الشديد بسبب كفركم وعنادكم واستهزائكم بالحق الذى جاءكم به محمد - ﷺ - من عند الله . ثم حكي سبحانه - ما كانوا يفعلونه من إنفاق أموالهم لافى الخير وإيكن فى الشرور والآثام وقودهم على ذلك بسوء المصير فقال - تعالى - : إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما ذكره محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلمهم - أى جيشهم المهزوم - إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، هشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناءؤهم وإخوانهم فى بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كافت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حرب ، اعلنا أن ندرك منه ثاراً من أصيب منا . ففعلوا . قال : ففهمهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله - تعالى - إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . . . الآية (١) .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : نزلت فى أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم غزوة أحد الفين من الأحابيش من بنى كنانة ، فقاتل بهم النبى - صلى الله عليه وسلم - (٢) :

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٧ .

وروى عن الكلبي والضحاك ومقاتل أنها نزلت في المطعمين يوم بدره
وكانوا اثني عشر رجلا من قريش ... كان كل واحد منهم يطعم الناس كل
يوم عشر جزر (١) .

قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فهي طامة وإن كان سبب نزولها خاصا .
أي : أن الآية الكريمة تتناول بوعيدها كل من يبذل أمواله في الصدقة
مسبيل الله ، وفي تأييد الباطل ومعارضة الحق .

والمعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم ينفقون أموالهم ، لا في وجوه
الحير ، وإنما ينفقونها ، ليصدوا عن سبيل الله ، أي : ينفقونها لينعروا الناس
عن الدخول في الدين الذي يوصلهم إلى رضا الله ، وإلى طريقته القويم .
واللام في قوله : : ليصدوا ، لام الضرورة . وبصح أن تكون التثنية ؛
لأن غرضهم منع الناس عن الدخول في دين الله الذي جاء به النبي
— ص — ، والذي يرونه ديناً مخالفاً لما كان عليه الآباء والأجداد
فيحب محاربتهم في رعبهم .

وقوله : : فيسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ... ، بيان
لما سيتول إليه أمرهم في الدنيا من الخيبة والهزيمة والندامة .
أي : فيسيفقون هذه الأموال في الشرور والعدوان ، ثم تكون عاقبة ذلك
حسرة وندامة عليهم ، لأنهم لم يصلوا - ولن يصلوا - من وراء إلقاءها إلى ما يفتنون
ويؤملون . وفضلا عن كل هذا فستكون نهايتهم الهزيمة والإذلال في الدنيا ،
لأن سنة الله قد اقتضت أن يجعل النصر في النهاية لأتباع الحق لا لأتباع الباطل .
وقوله : : فيسيفقونها ، خبر إن في قوله : : إن الذين كفروا ... ، واقفون

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٤٥ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٩ ص ٣٠٤ .

الخبير بالفناء لتضمنه الموصول مع صلته معنى الشرط ، فصار الخبر بمنزلة
الجزاء . بحسب المعنى وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء ، إشعار بكما
سوء إنفاقهم ، حيث إنهم لم ينفقوا أموالهم في خير أو ما يشبه الخير ، وإن
أنفقوها في الشرور المحض . . وجاء للمطف بحرف . ثم للدلالة على البوار
التاسع بين ما قصده من نفقتهم وبين ما آل ويؤول إليه أمرهم . فهم قد
قصدوا بنفقتهم الوقوف في وجه الحق والانتصار على المؤمنين . . . ولكن
هذا القصد ذهب أدراج الرياح ، فقد ذهبت أموالهم سدى وغلبوا المرة
بالمرة ، وهاد المؤمنون إلى مكة فاتحين ظافرين بعد أن خرجوا منها مهاجرين .
وقوله : . . . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ، بيان لسوء مصيرهم
الآخرة ، بعد بيان حشرتهم وهم يمتهم في الدنيا .

أى : أن هؤلاء الكافرين ستكون عاقبة إنفاقهم لأموالهم الحرام
سواء هزيمتهم في الدنيا ، أما في الآخرة فسيكون مصيرهم الحشر والسوق إلى
غار جهنم لا إلى غيرها .

وقوله : . . . ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض
خبركه جميعاً فيجعلهم في جهنم . . . ، بيان للحكمة - سبحانه - في حشر
الكافرين وحشرهم إلى جهنم . . .

وقوله : . . . وفيركه ، أى : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض . يقال : ركم الشيء
يركه ، إذا جمعه وألقى بعضه على بعضه . وارتكم الشيء وتراكم أى : اجتمع
والمعنى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل مع خذلان الكافرين وحشرهم إلى
جهنم ، ومن تأييد المؤمنين وفوزهم برضوانه ، ليميز للفريق الخبيث وال
فريق الكافرين ، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين ، فإذا ما تأيدوا
- سبحانه - الفريق الخبيث منضمها بعضه على بعض ، فيلقى به في حشر
جزاء خبيثه وكفره . . .

واللام في قوله « ليميز » متعلقة بقوله « يغلبون » أو بقوله « يحشرون » ويجوز أن يكون المراد بالخبيث ما أنفق الكافرون من أموال للصد عن بيل الله ، وبالطيب ما أنفق المؤمنون من أموال لإعلاء كلمة الله .

وعليه تكون اللام في قوله « ليميز » متعلقة بقوله : « ثم تكون عليهم حسرة » : أنه — سبحانه — يميز هذه الأموال بعضها من بعض ، ثم يضم الأموال لثبينة بعضها إلى بعض ، فيلقى بها وأصحابها في جهنم .

والتعبير بقوله — سبحانه — « فيركمه جميعاً » تعبير مؤثر بليغ ، لأنه يور الفريق الخبيث كأنه أشدة زاحه وانضمام بعضه إلى بعض شيء متراكم مل ، يقذف به في النار بدون اهتمام أو اعتبار .

واسم الإشارة في قوله : « وأولئك هم الخاسرون » يعود إلى هذا فريق الخبيث . أى : أولئك الكافرون الذين أنفقوا أموالهم في الصد عن بيل الله هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم .

وبعد كل هذا التهديد والوعيد للكافرين ... يوجه — سبحانه — خطابه : نبيه - صلى الله عليه وسلم - يأمره فيه أن يبلغهم حكم الله إذا ما انتهوا عن كفرهم ، كما يأمر المؤمنين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ، نول — سبحانه — : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، إن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة يكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » .

أى : « قل ، يا محمد لهؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، من أهل مكة وغيرهم ، قل لهم : « إن ينتهوا » عن كفرهم وعداوتهم المؤمنين « يغفر لهم » قد سلف ، من كفرهم ومعاصيهم » وإن يعودوا ، إلى قتالك ويستمرروا ضلالهم وكفرهم وطغيانهم ، انتقمنا منهم » ونهزنا المؤمنين عليهم » فقد تمت سنة الأولين ، على ذلك .

أى : فقد مضت سنة الله - تعالى - فى الأولين ، وسنته لا تتخلف فى أنا
- سبحانه - يعذب المكذبين بعد إفذارهم وتبليغهم دهرته ، وينصر عباده المؤمنين
وينجيهم ويمكن لهم فى الأرض . وقد رأى هؤلاء المشركون كيف كانت
عاقبة أمرهم فى بدر ، وكيف أملاك - سبحانه - الكافرين من الأمم قبلهم .
وجواب الشرط لقوله : وإن يعودوا ، محذوف والتقدير : وإن يعودوا
فلننقم منهم .

وقوله : فقد مضت سنة الأولين ، تعليل للجواب المحذوف .
قال الألوسى : قوله : فقد مضت سنة الأولين ، أى عادة الله الجارية فى الذين
تحزبوا على الأنبياء من نصر المؤمنين عليهم وخذلانهم وتدميرهم . وأضيفت
السنة إليهم لما بينهما من الملازمة الظاهرة . ونظير ذلك قوله - سبحانه - : سنأخذ
منهم ما أرسلنا به قبلاً ، فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته لقوله - سبحانه -
: ولا تجد لسنةنا تبديلاً ، باعتبار جريانها على أبدية . ويدخل فى الأولين
الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر .

والآية حث على الإيمان وترغيب فيه . واستدل بها على أن الإسلام
يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاتته من صلاة أو زكاة
أو صوم أو إنلاف مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله فى المريد إذا تاب
لعموم الآية ... ، (١) .

وقوله : وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ... ، أم
من الله - تعالى - للمؤمنين بفعال الكافرين إذا ما استمروا فى كفرهم
وطغيانهم .

والمعنى : هلكهم - أيها المؤمنون - إذا ما استمر أولئك الكافرون فى كفرهم
وعداوتهم ، أن تقتلوهم بشدة وغلظة ، وأن تستمروا فى قتالهم حتى تمزقوا

سولة الشرك ، وحتى تعيشوا أحرارا في مباشرة نعاليم دينكم بدون أن يهرق
 أحد على محاولة فنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم ... وحتى نصير كلمة الذين
 كفروا هي السفلى .

قال الجمل : وقوله : « وقالوهم ... » معارف على قوله « قل للذين كفروا » .
 لكن لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء
 الإفراء . ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع
 خراطبوا جميعا ، (١) .

وقوله « فإن انتهموا فإن الله بما يعملون بصير ، أي : فإن انتهموا عن كفرهم
 عن معاداتكم ، فكفروا أيديكم عنهم ، فإن الله — تعالى — لا يخفى عليه شيء
 من أعمالهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير »
 عبارة منه — سبحانه — للمؤمنين بالنصر والتأييد .

أي : وإن أعرضوا عن الإيمان ولم يبتئوا عن الكفر والطغيان فاعلموا
 أن الله مولاكم ، أي : ناصركم ومعينكم عليهم ، فتقوا بولايته ونصرته ،
 هو — سبحانه — نعم المولى ونعم النصير ، لأنه لا يضيع من تولاه ،
 لا يهزم من نصره .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد فتحت الباب للكافرين حتى
 فيثوا إلى رشدهم ، ويبتئوا عن كفرهم ، وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك غفر
 الله لهم ما سلف من ذنوبهم ... أما إذا استمروا في كفرهم ومعاداتهم للحق ،
 قد أمر الله عباده المؤمنين بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ..
 أي أن القتال في الإسلام شرعه الله — تعالى — من أجل إعلاء كلمته
 من أجل رفع الأذى والفتنة والمدران ممن يعتنقون دينه وشريعته ..

هذا ، وقد ساق ابن كثير عند تفسيره الآيات جملة من الأحاديث التي تشهد بأن القتال في الإسلام إنما شرعه الله - تعالى - لإعلاء كلمته ، وليس لأجل الغنيمة أو السيطرة على الغير . . . وأنه لا يجوز لمسلم أن يقتل إنسانا بعد نقطة بالشهادتين . فقال - رحمه الله - : : وقوله - تعالى - : وقالوهم حتى لا تكون فتنة . . . :

روى البخاري عن ابن عمر أن رجلا جاءه - في فتنة ابن الزبير - فقال له يا أبا عبد الرحمن ، ألا تصنع ما ذكره الله في كتابه وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . الآية (١) . فما بمنعتك من القتال ؟ فقال يا ابن أخي لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلى من أن أعير بالآية التي تقول : : ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها . . . الآية (٢) .

فقال الرجل : فإن الله يقول : : وقالوهم حتى لا تكون فتنة ، فقال ابن عمر : : قد فعلنا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ كان الإسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن في دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يؤثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة . . .

وهن سعيد بن جبير قال : خرج إلينا ابن عمر فقال له قاتل : كيف ترى في قتال الفتنة ؟ فقال له ابن عمر وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم هل الملك . . .

وفي رواية أنه قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله وأنتم تريدون أن نقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله . . .

(١) سورة الحجرات : الآية ٩

(٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .

ثم قال ابن كثير : وقوله « فإن انتهوا ، أتى بقتالكم عناية من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعملوا بواطنهم ، فإن الله بما يعملون بصير » . . .
 وفي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأسامة لما
 هلا ذلك الرجل بالسيف ، فقال الرجل لا إله إلا الله فضربه فقتله فذكر
 ذلك للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال لأسامة : أفتلته بعد ما قال لا
 إله إلا الله ؟ فكيف تصنع ؟ بلا إله إلا الله ، يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله
 إنما قالها تهوذا ، فقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه
 من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ، قال أسامة : حتى تمنيت أني لم أكن
 أسلمت إلا يومئذ ، (١) .

وبعد هذا الحديث المنوع عن مكر الكافرين ، وعن دعاويهم للكاذبة ،
 وعن وجوب مقاتلتهم إذا ما استمروا في طغيانهم وهدوانهم . . بعد كل ذلك
 بين - سبحانه - للمؤمنين كيفية قسمة الغنائم التي كثيرا ما تترتب على
 قتال أعدائهم ، فقال - تعالى - :

أَوْ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ
 بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْأَجمَعَانِ وَاللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

وقوله : « غنمتم » من الغنم بمعنى الفوز والربح يقال : غنم غنما وغنيمة إذا
 ظفر بالشيء . قال القرطبي ما ملخصه : الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة
 بسعي ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٨ - بتصرف وتلخيص - .

وقد طرقت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وأعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله - تعالى - : « غنمتم من شيء » ، مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر . . .
وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأم - وال بإسمين :
غنيمة وفينا .

فالشئ الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعى وإيجاف الخيل والركاب يسمى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً .

والتي مأخوذ من فاء يقيء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف . كخراج الأرضين ، وجزية الجاهم . . (١) .
والمعنى الإجمالي للآية الكريمة : « وأعلموا » أيها المسلمون أن ما غنمتم من شيء ، أي : ما أخذتموه من الكفار قهراً ، فإن الله ، الذي منه سبحانه النصر المنفرد عليه الغنيمة ، خمس ما غنمتموه شكراً له على هذه النعمة ، والرسول ، الذي هو سبب في هدايتكم ، ولذي القربى ، أي : ولأصحاب القرابة من رسول الله - ص - والمراد بهم على الراجح بنو هاشم وبنو المطلب .

« واليتامى » وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا .
« والمساكين » وهم أهل العفاقة والحاجة من المسلمين .
« وابن السبيل » وهو المسافر الذي نفد ماله وهو في الطريق قبل أن يصل إلى بلده .

وقوله « وأعلموا » معطوف على قوله قبل ذلك ، وكانوا هم حتى لا تكون غنية . . الخ ، و « ما » في قوله : « أن ما غنمتم » ، موصولة والمعائد محذوف .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١ . طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ م .

(م ٩ - سورة أنفال)

وقوله : من شيء ، بيان للموصول محله النصب على أنه حال من العائد المقدر .
 أى : أن ما غنمتموه من شيء سواء أكان هذا الشيء قليلا أم كثيرا .
 ، فإن لله خمسة . .

وقوله : فإن لله خمسة ، خبر مبتدأ محذوف والتقدير : فحكمه أن لله خمسة .
 والجار والمجرور خبر : أن ، مقدم ، وخمسة اسمها مؤخر . والتقدير : فإن
 خمسة كائن لله وللرسول ولذئ القربى . . إلخ .

وأعبدت اللام في قوله : ولذئ القربى ، دون غيرهم من الأصناف التالية
 لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبى - ص - لمزيد اتصا لهم به .
 وقوله : إن كنتم آمنتم بالله . . ، شرط جزاؤه محذوف .

أى : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان ، وآمنتم بما نزلنا على عبدنا ،
 فقد ص - يوم الفرقان ، أى يوم بدر ، يوم التقى الجمعان ، أى :
 جميع المؤمنين وجمع الكافرين . . . إن كنتم آمنتم بكل ذلك ، فاحملوا
 ما علمتم ، وارضوا بهذه القسمة عن إذعان وتسليم وحسن قبول .

وما أنزله الله على نبيه . ص . يوم بدر . يتناول ما نزل من آيات
 آتية ، كما يتناول نزول الملائكة لتثبيت المؤمنين ، وتبشيرهم بالنصر
 يتناول غير ذلك مما أبدى الله به في بدر .

وسمى يوم بدر يوم الفرقان ، لأنه اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق
 الباطل وقوله : والله على كل شيء قدير ، تذييل قصد به بيان أن ما أصابه
 ومنون يوم بدر من غنيمة ونصر إنما هو بقدرة الله التى لا يعجزها شيء ،
 بإيهم أن يداوموا على طاعته وشكره إيزيدهم من عطائه وفضله .

هذا ، وقد ذكر العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل
 الأحكام من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الآية وضحت أن غنائم الحرب تخمس ، فيجعل الخمس الأول
 لها لله وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والأربعة

الأخماس الباقية بينت السنة أنها تقسم على الجيش : للرجال - سهم ، والفارس ثلاثة أسهم أو سهمان .

قال ابن كثير: ويؤيد هذا ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي - ﷺ - ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرسا فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ، فقال : لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش ، قلت : فما أحد أولى به من أحد ، قال : لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبيك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم ، (١) .

وقال بعض العلماء : أفادت الآية أن الواجب في المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله - تعالى - ، وقسمة الباقي بين الغنائم بالعدل ، للرجال سهم ، والفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفارسه . - كذا قسم النبي - ﷺ - للغنائم عام خيبر .

ومن الفقهاء من يقول : للفارس سهمان . والأول هو الذي دللت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤته نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين .

ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يجازي أحد ، لالرياسته ولا لنفسه ولا لفضله وفي صحيح البخاري أن سعد بن أبي وقاص رأى أن له فضلا على من دونه ، فقال النبي - ﷺ - : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » (٢) .

ذهب جمهور العلماء إلى أن المقصود بالإيتاء بلفظ الجلالة في قوله « قآن لله خمسها » : التبرك والتعظيم والحض على إخلاص النية عند القسمة ، وعلى الامتنال والعناية له - سبحانه - .

وليس المقصود أن يقسم الخمس على ستة منها الله - تعالى - ، فإنه - سبحانه - له الدنيا والآخرة ، وله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٩٩٧ .

وعليه يكون خمس الغنيمة مقسما على خمسة أقسام : للرسول ، ولذي القربى واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .
ويرى أبو العالية والربيع والقاسم أن هذا الخمس يقسم إلى ستة أقسام ، حملا بظاهر الآية ، وأن سهم الله - تعالى - يصرف في وجوه الخير ، أو يؤخذ للمكة .

وقد رجح ابن جرير رأى الجمهور فقال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال : قوله : فإن لله خمسة ، افتتاح كلام ، وذلك لإجماع الحجة على أن الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم . ولو كان لله فيه سهم - كما قال أبو العالية - لوجب أن يكون خمس الغنيمة مقسوما على ستة أسهم . وإنما اختلف أهل العلم في قسمه على خمسة فما دونها .

فأما على أكثر من ذلك فلا نعلم قائلا قاله غير الذي ذكرنا من الخبر عن أبي العالية . وفي إجماع من ذكرت الدلالة الواضحة على ما اخترناه (١) .
وسهم النبي - ﷺ - الذي جعله الله - تعالى - له في قوله ، والرسول ، كان مفوضا إليه في حياته ، يتصرف فيه كما شاء ، ويضعه حيث يشاء .

روى الإمام أحمد أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ، ما كلمات رسول - ﷺ - في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله - ﷺ - صلى بهم في غزوهم إلى بعض من المفسم . فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - ص - فتناول وبرة بين أغلطين فقال : إن هذه من غنائمكم ، وأنه ليس لي فيها إلا نصيبى معكم الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والخز . وأكبر من ذلك وأصفر ، ولا تغلوا فإن الغلول نار وطار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله تبارك وتعالى ، القريب والبعيد ، ولا لبوا في الله لومة لائم ، وأقيموا الحدود

في الحضر والسفر ، وجاهدوا في سبيل الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة .
ينهى الله به من الغنم والحم ، قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو داود والنسائي عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلى الله عليه وسلم - صلى بهم إلى بغير من المغنم ، فلما سلم أخذه وبرة من جنب البعير ثم قال : ولا يحل لي من غنائكم ، مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم (١)

هذا بالنسبة لسهمة - ﷺ - في حياته ، أما بعد وفاته ، فمنهم من يرى : أن سهمة - ﷺ - يكون لمن بلى الأمر من بعده .
روى هذا عن أبي بكر وعلى وقناة وجماعة . . .

ومنهم من يرى أن سهمة - صلى الله عليه وسلم - يصرف في مصالح المسلمين . روى ابن جرير عن الأعمش عن إبراهيم قال : كان أبو بكر وعمر يجملان سهم النبي - ص - في الكراع والسلاح .

ومنهم من يرى صرفه لبقية الأصناف : ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقد رجح ابن جرير هذا الرأي فقال : والصواب من القول في ذلك عندنا : أن سهم رسول الله مردود في الخمس ، والخمس مقسوم على أربعة أسهم على ما روى عن ابن عباس : للقرابة سهم ، ولليتامى سهم ، وللمساكين سهم ، ولابن السبيل سهم ؛ لأن الله تعالى - أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات ، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين . وقد أجمعوا أن حق الأربعة الخماس لن يستحقه غيرهم ، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم ، فغير جاز أن يخرج عنهم إلى غيرهم

٤ - المراد بذى القربى - كما سبق أن أشرنا - : بنو هاشم وبنو المطلب على الراجح . وعليه فإن السهم المخصص لذى القربى لا يصرف إلا لهم -

قال القرطبي ما ملخصه : اختلف العلماء في ذوى القربى على ثلاثة أقوال :
أولها : أن المراد بهم قرىش كلها : قاله بعض السلف ، لأن النبی ﷺ -
لما صدق الصفا جعل يهتف يا بنى فلان يا بنى عبد مناف ...
أنقذوا أنفسكم من النار .

ثانيها : أن المراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب . قاله المحافى وأحمد
وأبو ثور ومجاهد ... لأن النبی ﷺ - لما قسم سهم ذوى
القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب قال : لأنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام
ولنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، ونحبك بين أصابعه . أخرجه
البخارى والمسلم ...

ثالثها : أن المراد بهم بنو هاشم خاصة . قاله مجاهد وعلى بن الحسين .
وهو قول مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم (١) .

وقال الألوسي : وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - على خمسة أسهم سهم له - صلى الله عليه وسلم - ،
وسهم للمنفكرين من ذوى القربى ، وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية .
وأما بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - فسقط سهمه ... وكذا سقط
سهم ذوى القربى ، وإنما يعطون بالفقر ، ويقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم ،
ولا حق لأغنيائهم ، لأن الخلفاء الأربعة قسموا الخمس كذلك وكفى بهم
قدوة ...

ثم قال : ومذهب المالكية أن الخمس لا يلزم تعميمه ، وأنه مفوض
إلى رأى الإمام .

- أى أنهم يرون أن خمس الغنيمة يجعل في بيت المال فينفق منه على من
ذكر وعلى غيرهم بحسب ما يراه الإمام من مصلحة المسلمين ، وكانهم يرون

أن هذه الاختلاف إنما ذكرت على سبيل المثال ، وأنها من باب الخاص الذي قصد به العام ، بينما يرى غيرهم أن هذه الأصناف من باب الخاص الذي قصد به الخاص . . .

ثم قال : ومذهب الإمامية أنه ينقسم إلى ستة أسهم كما ذهب أبو العالية ، إلا أنهم قالوا : إن سهم الله - تعالى - ، وسهم رسوله - ﷺ - وسهم قوى القرى السكل للإمام القائم مقام الرسول - ﷺ - أما الأسهم الثلاثة الباقية فهم القيام من آل محمد - ﷺ - ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لا يشركهم في ذلك غيرهم . روى ذلك عن زين العابدين ، ومحمد بن علي الباقر . . .

ثم قال : والظاهر أن الأسهم الثلاثة الأولى التي ذكرها اليوم تخبا في السرداب ، إذ القائم مقام الرسول - ﷺ - قد غاب عنهم فتخبا له حتى يرجع من غيبته . . . (١) .

هذا ، ومن كل ما سبق نرى أن أكثر العلماء يرون أن خمس الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام ، ومنهم من يرى أنه يقسم إلى ستة أقسام ، ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه إلى خمسة أقسام أو إلى ستة ، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده . . . ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفروع ،

• ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - في مطلع السورة : يسألونك عن الأنفال . . . أن المراد بالأنفال : الغنائم وعليه تكون الآية التي معنا وهي قوله : واعلموا أنما غنمتم . . . مفصلة لما أجملته الآية التي في مطلع السورة .

أي أن الآية التي في مطلع السورة بينت أن الأمر في قسمة الأنفال مفوض

لى الله ورسوله ، ثم جاءت الآية التى معنا ففصلت كيفية قسمة الغنائم حتى
 ' يتطلع أحد إلى ما ليس من حقه .

وهذا أولى من قول بعضهم : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى فى مطلع
 سورة ؛ لأن النسخ لا يصار إليه إلا عند التعارض وهنا لا تعارض
 فى الآيتين .

٦ - الآية الكريمة أرشدت المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن
 يطيعوا فى طاعتهم لله - تعالى - وارسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن يجعلوا
 نهم من جهادهم لإعلاء كلمة الله ، لى يكونوا مؤمنين حقا .

ويشعر بهذا الإرشاد تصديره - سبحانه - الآية بقوله : « واعلموا أنما
 يتم من كل شيء فإن لله خمسه ... » كما يشعر به قوله - تعالى - « إن كنتم
 تم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان . » ، فإن كل ذلك فيه معنى الحس
 لإخلاص النية لله - تعالى - ، والامتثال لحكمه ، والمداومة على شكره ،
 ثم منحهم - سبحانه - هذه النعم بفضلته وإحسانه ، وإلى هذا المعنى أشار
 حب للكشاف بقوله : فإن قلت : بم تعلق قوله « إن كنتم آمنتم بالله » ،
 بمحذوف يدل عليه قوله « واعلموا أنما غنمتم .. » والمعنى : إن كنتم
 م بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه
 عكم واقتنعوا بالآخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكنه
 المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله - تعالى - ، لأن العلم المجرد يستوى فيه
 ن والكافر ، (١) .

هذه بعض المسائل والأحكام التى استنبطناها من الآية الكريمة ، وهناك
 . وأحكام أخرى تتعلق بها ذكرها بعض المفسرين فارجع إليها
 تحت (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٨ من ص ١ إلى ص ٢٠ .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله وحكمه في هزوة بدر ، فبين
الأمم التي نزل فيها كل فريق ، كما بين الحكمة في لقاء المؤمنين والكافرين
على غير ميعاد ، والحكمة في تقليل كل فريق منها في عين الآخر . . .

فقال - تعالى - : **إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ**

الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ
وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ **إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ**
فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ**
الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله : **إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا** . . . بدل من قوله : **يوم الفرقان** . . .
أو معمول لفعل محذوف ، والتقدير : **اذكروا** .

والعدوة - مثلثة العين - جباب الوادى وحافته . وهى من العدو بمعنى
التجاوز . سميت بذلك لأنها حدث - أى منعت - ما فى الوادى من ماء ونهوه
أن يتجاوزها .

والدنيا : تأنيه الأدنى بمعنى الأقرب . والقصوى : تأنيه الأعلى بمعنى الأبعد .
والركب : اسم جمع لراكب . وهم العشرة فصاعداً من راكبي الإبل .

قال القرطبي : ولا تقول العرب : ركب إلا للجاهل الرأى الإبل ..
والمراد بهذا الركب : أبو سفيان ومن معه من رجال قريش الذين كانوا
قادمين بتجارهم من بلاد الشام ومتجهين إلى مكة ، فلما بلغ النبي
- ص - أمرها ، أشار على أصحابه بالخروج لملاقاتها ، كما سبق أن بيناهند
تفسيرنا لقوله - تعالى - : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق

والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن خرجتم إلى بدر ، فسرتم
إلى أن كنتم بالعدوة الدنيا ، أي : بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى
المدينة ، وكان أعداؤكم الذين قدموا لنجدة العير بالعدوى القصوى ، أي :
بالجانب الآخر الأبعد من المدينة ، وكان أبو سفيان ومن معه من حراس
العير أسفل منكم ، أي : في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه ،
بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، هلى بعد ثلاثة أميال منكم .

قال الجمل : قوله : والركب أسفل منكم ، الأحسن في هذه الواو ، والواو
التي قبلها الداخلة على دم ، أن تكون عاطفة ما بعدها هلى : أنتم ، ، لأنها
مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوم ويجوز أن يكونا واو حال ، وأسفل
منصوب على الظرف النائب عن الخبر ، وهو في الحقيقة صفة نظرف مكان
محدوف . أي : والركب في مكان أسفل من مكانكم وكان الركب على
ثلاثة أميال من بدر (١) .

وقال الإمام الزمخشري - رحمه الله - : فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ،
وذكر مراكن الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم ؟

قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة الشان للعدو ، وتكامل
عدته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شان المسلمين ، والنيات أمرهم ، وأن
فلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنماً من الله - سبحانه - ، ودليلاً على
أن ذلك أمر لم يقيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته .

وذلك لأن العدو القصى الذى أفاخ بها المشركون، كلف فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدو الدنيا، وهى خبار - أى أرض ليثة وخوة - تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب وعسقة.

وكانت العير وراء ظهور العدو، مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم، وتشجعت فى المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليعجزهم الذب عن الحريم على بذل جميع ما هم فى القتال . . .

وفيه تصوير ماذر - سبحانه - من أمر غزوة بدر، ليقضى أمراً كان مفعولاً، ومن إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين بمهمة غير مبدئية حتى خرجوا إلى أخذ العير راغبين فى الخروج، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم، فنفروا لينموا غيرهم، وسبب الأسباب حتى أفاخ هؤلاء بالعدو الدنيا وهؤلاء بالعدو القصى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق، وكان ما كان، (١).

وقوله: «ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، بيان لتدبير الله الحكيم، وإرادته النافذة.

أى: لو تواعدتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال، لتختلفتم عن الميعاد المضروب بينكم، لأن كل فريق منكم كان سيتهيب الإقدام على صاحبه، ولكن الله - تعالى - بتدبيره الخفى شاء أن يجمعكم للقتال على غير ميعاد، ليقضى - سبحانه - أمراً كان مفعولاً، أى: ثابتاً فى علمه وحكمته، وهو: إعزاز الإسلام وأهله، وخذلان الشرك وحزبه.

روى ابن جرير من حديث كعب بن مالك - رضى الله عنه - قال: إنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يريدون عير قريش،

حتى جمع الله بينهم وبين عدوم على غير معناه . وروى - أيضاً - عن
عمر بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام ، وخرج أبو جهل
ليمنعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فالتقوا بيدر
ولا يشمر هؤلاء هؤلاء ، ولا هؤلاء هؤلاء ، حتى التقى السقاة ، قال : ونظر
الناس بعضهم إلى بعض ، (١) .

وقوله : إلهك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، بدل من قوله
« ليقضى ، بإعادة الحروف ، أو هو متعلق بقوله « منعولا ، .

والمراد بالهلاك والحياة هنا ما يشمل الحى والمعنوى منهما .

والمراد بالبينة الحجة الظاهرة الدالة على حقيقة الإسلام وبطلان الكفر .

قال الألوسى : أى : لموت من يموت عن حجة عاينها ، ويعيش من يعيش
عن حجة شاهدها ، فلا يبقى محل للتعامل بالأعذار ، فإن وقعت بدمى الآيات
الواضحة والحجج الغر المحجلة .

ويجوز أن يراد بالحياة : الإيمان ، وبالموت : الكفر على سبيل الاستعارات
أو المجاز المرسل . أن يراد بالبينة : إظهار كمال القدرة الدالة على الحجة
لدافعة .

أى : ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح وبينة . وإلى هذا
ذهب قتادة وابن إسحاق . والظاهر أن « من » هنا بمعنى بعد كقوله تعالى -
« فما قليل ليصبحن نادمين » .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر ويعقوب ، حى ، - على وزن تعب -
نك الإدغام . وقرأ الباقر بن بادشاه الأولى في الثانية على وزن شدومد (٢)
وقوله ، وإن الله اسمع عايم ، تذييل قصد به التفرغ في الإيمان - والتفريب

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ٧ - بتصرف وتلخيص .

عن الكفر . أى : وإن الله لسميع لأقوال أهل الإيمان والكفر ، عليم بما
عنطوى عليه قلوبهم وضمائرهم ، وسيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه
من ثواب أو عقاب على حسب ما يعلم وما يسمع منه .

ثم بين - سبحانه - بعض وجوه نعمه على المؤمنين ، وتدبيره الخفى
لنصرهم وفوزهم فيقول : « إذ يريكهم الله في منامك قليلا ، ولو أراكم كثيرا
لفعلتم واتنازعتهم في الأمر ، ولكن الله سلم لأنه عليم بذات الصدور » .

أى : اذكر يا محمد فضل الله عليك وعلى أصحابك ، حيث أراك في
منامك الكافرين قليلا عددهم ، ضيلا وزنهم ، فأخبرت بذلك أتباعك فازدادوا
ثباتا واطمئنانا وجرأة على عدوهم ، ولو أراكم كثيرا ، أى : ولو أراك
الأعداء عددا كثيرا ، لفعلتم ، أى : لتبينتم الإقدام عليهم ، لكثرة عددهم
من الفشل وهو ضعف مع جبن ، واتنازعتهم في الأمر ، أى : في أمر
الإقدام عليهم والإحجام عنهم . فنكم من يرى هذا ومنكم من يرى ذلك .
وقوله : « ولكن الله سلم » بيان لمحل النعمة . أى : ولكن الله - تعالى -
بفضله وإحسانه أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع وتفرق الآراء في
شأن القتال : حيث ربط على قلوبكم ، ورزقكم الجرأة على أعدائكم وعدم
المبالاة بهم بسبب رؤيا نبيكم .

وقوله : « إنه عليم بذات الصدور » ، تدبيل يدل على شمول علمه - سبحانه -
أى : إنه - سبحانه - عليم بكل ما يحصل في القلوب وما يخطر بها من
شجاعة وجبن ، ومن صبر وجور ولذلك دبر ما دبر .

قال الفخر الرازى ، قال مجاهد : أرى الله النبى - صلى الله عليه وسلم -
كفار قريش في مقامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا : رؤيا النبى حق .
القوم قليل . فصار ذلك سببا لجرأتهم وقوة قلوبهم .

فإن قيل : رؤية الكثر قليلا غلط ، فكيف يجوز من الله - تعالى - أن
يفعل ذلك ؟

قلنا : ذهبنا أنه - تعالى - يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وأيضاً الله - سبحانه - أراه البعض دون البعض لحكم الرسول على أوائله الذين رآهم بأنهم قليلون ، (١) ونستطيع أن نضيف إلى ما أجاب به الفخر الرازي أنه يجوز أن يكون المراد بالقلة : الضعف وهو ان الشان . .

أى : أن المشركين وإن كانوا فى حقيقة قوتهم يقاربون الألف - أى أكثر من ثلاثة أمثال المؤمنين - إلا أنهم لاقوة لهم ولا وزن ، فهم كثير عددهم ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم فى المعركة . لأنهم ينقصهم الإيمان الصحيح الذى يقوى القلوب ، ويدفع النفوس إلى الإقدام لضمرة الحق لئلا تفوز برضا الله وحسن مشيئته .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : وقد تقدم أن النبى - ص - قدر عدد المشركين بألف وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع هذا أنه رآهم فى منامه قليلاً ، لا أنهم قليل الواقع ، فالظاهر أنهم أولوا للرؤيا بأن بلاهم يكون قليلاً ، وأن كيدهم يكون ضعيفاً ، فتجزوا وقوت قلوبهم .

هذا ، ونسب إلى الحسن أنه ذكر أن هذه الآراء كانت فى اليقظة ، وأن المراد من المنام العين التى هى موضع النوم . قال الزمخشري : وهذا تفسير فيه تعسف . وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن .

وقال الألوسى : وعن الحسن أنه فسر المنام بالعين ، لأنها مكان النوم كما يقال للقطيفه المنامة لأنها ينام فيها ، فلم تكن عنده هناك رؤيا أصلاً بل كانت رؤية ، وإليه ذهب البلاخى . ولا يخفى ما فيه لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر ميمي . . فى الحمل على خلاف ذلك تعقيد ولا نمكته فيه . . على أن الروايات الجملة برؤيته - صلى الله عليه وسلم - إياهم مناماً ، وقص ذلك على أصحابه .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٦٩ (٢) تفسير المنار ج ١ ص ٢٢ -

مشهورة ، لا يعارضها كون العين مكان النور نظرا إلى الظاهر .. ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة ، فإنه الفصيح العالم بكلام العرب (١) .

وقوله - تعالى - : وإذ يريكموهم إذ التقيتهم في أعينكم قليلا وبفلكم في أعينهم معطوف على ما قبله وهو قوله : وإذ يريكهم الله في منامك قليلا . . . وذلك لتأكيد الرؤيا المنامية بالرؤية في اليقظة .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن التقيتهم مع أعدائكم وجها لوجه في بدر ، فكان من فضل الله عليكم قبل أن تلتحموا بهم أن جعل عددهم قليلا في أعينكم ، وجعل عددكم قليلا في أعينهم ، وذلك لإغرائهم على خوض المعركة .

أما أنتم فتخوضونها بدون مبالاة بهم لقاتلهم في أعينكم ، ولتقتلكم بنصر الله إياكم . . .

وأما هم فيخوضونها معتمدين على غرورهم وبطرتهم وقلبتهم في أعينهم ، فيترتب على ذلك أن يقرروا الاستعداد اللازم لقتالكم ، فتكون الدائرة عليهم . . .

قال ابن مسعود - وهو عن حضر بدر - : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أترأهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً (٢) .

وقال أبو جهم - في ذلك اليوم وقبل الالتحام - : إن محمداً وأصحابه أكلة جرور - أي هم قليل يشبههم لحم ناقة واحدة - خذوهم أخذاً وأربطوهم بالحبال . . . (٣)

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٨ (٢) تفسير ابن جرير ج ١٩ ص ١٣

(٣) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٣

وقد أجاد صاحب الكشف عند تفسيره هذه الآية حيث يقول: قوله « وإذ يركبكم ، الضميران مفعولان ، يعنى : وإذا يبصركم أيام . و « قليلا » حال . وإنما قللهم في أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله - ﷺ - ، وليعابنوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجحدوا ويثبتوا . . .

فإن قلت : الغرض من تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض من تقليل المؤمنين في أعينهم ؟

قلت : قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ، ليجترأ عليهم ، فلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، وتقل شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله « قد كان لكم آية في فئتين القتلى ، فئة قتلت في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثلهم رأى العين . . (١) وثلاثا يستعيدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاخ الآية البينة من قتلهم أولا ، وكثرتهم آخرها .

ثم قال : فإن قلت : باى طريق يبصرون الكثير قليلا ؟

قلت : بأن يستر الله عنهم بعضه يسائر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين .

فيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين . وكان بين يديه ديك واحد - فقال : ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة ، (٢) .

وقوله - سبحانه - « ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور » ، بيان لحكمه تدبيره ، ونفاذ قدرته ، وشمول إرادته .

أى : فعل - سبحانه - ما فعل من تقليل كل فريق في عين الآخر ليقضى أمرا كان مفعولا ، أى : ثابتا في علمه وحكمته ، وهو نشوب القتال

(١) سورة آل عمران الآية ١٣

(٢) تفسير الكشف ٢٣ ص ٢٢٥

اللفظي إلى انتصار المؤمنين، واندحار الكافرين. وإلى الله وحده ترجع الأمور لا إلى إحد سواه ، فإن كل شيء عنده بمقدار . ولا ينفذ شيء في هذا المكون إلا بقضائه وقدره ، وما من شيء إلا مصيره ومرده إليه .

قال بعض العلماء : ولا يقال إن قوله - تعالى - : ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، مكرر مع ما سبق ، لأننا نقول : إن المقصود من ذكره أولاً في قوله : إذ أنتم بالعدوة الدنيا . . . هو اجتماعهم بلا ميعاد ، ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبي - ص - والمقصود منه هنا بيان غارق آخر ، وهو تقليلهم في أعين المشركين ثم تكثيرهم للحكم المتقدمة ، (١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانباً من أحداث غزوة بدر بأسلوب تصويري بديع في استحضاره لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن جوانب من مظاهر قدرة الله ، ومن تدييره المحكم الذي كان فوق تدبير البشر ، ومن تهيته الأسباب الظاهرة والخفية التي أدت إلى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

وبعد هذا التفصيل الكبير النافع ، والتصوير المؤثر لأحداث غزوة بدر ، وجه سبحانه - في هذه السورة إلى المؤمنين النداء السادس والآخر ، حيث أمرهم بالثبات في وجه أعدائهم ، وبالمداومة على ذكره وطاعته . . . ونهاهم عن التنازع والاختلاف فقال - تعالى - : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

وقوله : « لقيتم » من اللقاء بمعنى المقاتلة والمواجهة ، ويغلب استعماله في لقاء للقتال وهو المراد هنا .

وقوله : « فئة » أى : جماعة . مشتقة من الفى . بمعنى الرجوع ، لأن بعضهم يرجع إلى بعض .

والمراد بها هنا : جماعة المقاتلين من الكافرين وأشباههم .
والمتبع لاستعمال القرآن لهذه الكلمة ، يراه يستعملها - فى الأعم الأغلب - فى الجماعة المقاتلة أو الناصرة أو ما يشبه ذلك .

قال - تعالى - « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ... » (١) .

وقال - تعالى - : « قد كان لكم آية فى فتنتين اللتان فئة تقاثل فى سبيل الله وأخرى كافرة ... » (٢) .

وقال - تعالى - : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » (٣) .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، إذا لقيتم فئة ، أى : حاربتم جماعة من أعدائكم ، فاقبضوا ، اقاتلهم ، وأغلظوا عليهم فى النزال ، ولا تولوهم الأدبار ، « واذكروا الله كثيرا ، لاسيما فى مواطن الحرب ، فإن ذكر الله عن طريق القلب واللسان من أعظم وسائل النصر : لأن المؤمن متى استحضر عظمة الله فى قلبه لا تهوله قوة عدوه ، ولا تخيفه كثرة ... »

وقوله « اعلمكم تفلحون » أى : اعلمكم تظفرون بمرادكم من النصر وحسن الثواب ، متى فعلتم ذلك عن إخلاص .

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٣ .

وقوله : «أطيعوا الله ورسوله ، معطوف على ما قبله ، أى : اثبتوا عند لقاء الأعداء ، وأكثروا من ذكر الله ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل أقوالكم وأعمالكم ، وفى سركم وجهركم ، وفى كل ما تأتون وما تزدون .

وقوله : «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، نهى إلهم عن الاختلاف المؤدى إلى الفشل وضياح القوة بعد أمرهم بالثبات والمداومة على ذكر الله وطاعته .

وقوله : «تنازعوا ، من النزاع بمعنى الجفب وأخذ الشئ والتنازع والمنازعة المجاذبة كان كل واحد من المتنازعين يريد أن ينزع ما عند الآخر ويلقى به .

والمراد بالتنازع هنا : الخصام والجدال والاختلاف المفضى إلى الفشل أى : الضعف .

قال الألوسى : وقوله : «وتذهب ريحكم ، قال الأخفش : الريح مستعارة للدولة . لشبهها بها فى نفوذ أمرها وتمشيها . ومن كلامهم هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد . وركدت رياحه إذا ولى عنه وأدبر أمره . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدرى السكون متى يكون (١)
والمعنى : كونوا - أيها المؤمنون - ثابتين ومستمرين على ذكر الله وطاعته عند لقاء الأعداء ، ولا تنازعوا وتختصموا وتختلفوا ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الفشل أى الضعف ، وإلى ذهاب دولتكم ، وهوان كلمتكم ، وظهور عدوكم عليكم .

«واصبروا ، على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهوائكم التى تحملاكم على التنازع ، «إن الله مع الصابرين ، بتأييده ومعاونته ونصره .

هذا والمتأمل في هاتين الآيتين برهما قد رسما للمؤمنين مع كل زمان ومكان الطريق التي توصلهم إلى الفلاح والظفر .

لأنهما يأمران بالثبات، والثبات من أعظم وسائل النجاح، لأنه بمعنى ترك اليأس والتراجع وأقرب الفريقين إل النصر أكثرهما ثباتاً .

ويأمران بمداومة ذكر الله ، لأن ذكر الله هو الصلة التي تربط الإنسان بخالقه الذي بيده كل شيء ، ومنى حسنت صلة الإنسان بخالقه بصغرت في عينه قوة أعدائه مهما كثرت .

ويأمران بطاعة الله ورسوله ، حتى يدخل المؤمنون المعركة بقلوب نقية ، وبنفوس صافية . . . لا مكان فيها للتنازع والاختلاف المؤدى إلى الفشل ، وذهاب القوة . . . ويأمران بالصبر ، أى بتوطين النفس على ما يرضى الله ، واحتمال المكارة والمشاق في جلد . وهذه الصفة لا بد منها لمن يريد أن يصل إلى آماله وغاياته .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين :
« هذا تعليم من الله - تعالى - لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء . . »

وقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : يا أيها الناس لا تتمموا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قام وقال : اللهم منزل الكتاب ، وجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم . .

وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله - تعالى - . . « إن عبيدى كل عبيدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه ، أى : لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانئى . »

وعن قتادة في هذه الآية : « افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون .
عند الضرب بالسيف ، » .

ثم قال : « وقد كان الصحابة - رضى الله عنهم - في باب الشجاعة والانتهاز
بما أمرهم الله ورسوله ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم
والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد من بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول - صلى الله
عليه وسلم - وطاعته فيما أمرهم ، فتحروا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً ، في
المدة اليسيرة « مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم
والفرس ... قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ،
وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة
فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرة من إله كريم وهاب (١) . » .
وبعد هذه التوجيهات السامية التي رسمت للمؤمنين طريق النصر ، نهاهم
- سبحانه - عن التشبه بالكافرين صدهم الشيطان عن السبيل الحق ، فقال تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ

دِينِهِمْ بَطْرًا وَرِعَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا

يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ

لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ

نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهَتْهُمْ أَدِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال الفخر الرازي عندي تفسيره لقوله - تعالى - « ولا تكونوا كالذين خرجوا ... » المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير . خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف ، فلما وردوا الجحفة ، بعث خلفاى السكتان - وكان صديقا لأبي جهل - بهدايا إليه مع ابن له ، فلما أتاه قال : إن أبى ينعمك صباحا ويقول لك : إن شئت أن أمدك بالرجال أمددك ، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معى من قرابتى فعلت .

فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله والرحم خيرا . إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة . وإن كنا إنما نقاتل الناس ، فوالله إن بنا على الناس لقوة .

والله ما ترجع عن قال محمد حتى نرد بدرأ فاشرب فيها الخمر ، وتعريف فيها القيان ، فإن بدرأ موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم . وحتى تسمع العرب - بمخرجنا منها بنا آخر الأبد - .

قال المفسرون : فوردوا بدرأ ، وشربوا اكتسبوا المنيا مكان الخمر ، وناحت عليهم الذوائح مكان القيان ، (١) .

وقوله « بطرا » ، مصدر بطر - كفرح - ومعناه - كما يقول الراغب - : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقوقها ، وصرفها إلى غير وجهها ، (٢) .

أى أن البطر ضرب من التكبر والفورور واتخاذ نعم الله - تعالى - وسيلة إلى ما لا يرضيه وهو مفعول لأجله ، أو حال أى حال كونهم بطرين .

وقوله « رثاء » ، مصدر رآى ومعناه : للقول أو الفعل الذى لا يقصد منه الإخلاص ، وإنما يقصد به التظاهر وحسب الشاء .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٧٢ .

(٢) المفردات فى فريب القرآن ص ٥٠ .

والمعنى : كونوا أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء الأعداء ، ومكثرين من ذكر الله وطاعته ، وصابرين في كل المواطن . . . واحذروا أن تنشبوا بأولئك المشركين الذين خرجوا من مكة ، بطرا ورتاء الناس ، أى خرجوا غرورا وفخرا وتظاهرا بالشجاعة والحمية . . . حتى ينالوا الثناء منهم . . .

وقوله : « ويصدون عن سبيل الله » معطوف على « بطرا » ، والسبيل : الطريق الذى فيه مهولة . والمراد بسبيل الله : دينه . لأنه يوصل الناس إلى الخير والفلاح .

أى : خرجوا بطرين بما أنوا من نعم ومرائين بها الناس ، وصادين إياهم من دين الإسلام الذى يأتيا به يصلون إلى السعادة والنجاح .

وعبر عن بطرهم وريائهم بصيغة الاسم الدال على التمكن والثبوت ، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على النجدة والحدوث ، الإشعار بأنهم كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والرياء ، وأن هذه الصفات دأبهم وديدتهم ، أما الصد عن سبيل الله فلم يحصل منهم إلا بعد أن دعا الرسول - ص - الناس إلى الإسلام ،

وقوله : « والله بما يعملون محيط » تفيد قصد به التحذير من الاتصاف بهذه الصفات الذميمة ، لأنه سبحانه محيط بكل صغيرة وكبيرة ، وسيجازى الذين أسأوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . فعلى المؤمنين أن يخلصوا لله - تعالى - أعمالهم .

وقوله : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . . . » تذكير للمؤمنين بما خدع به الشيطان الكافرين من وعود كاذبة ، وأمانى باطلة .

والمراد بهذا التذكير : حضهم على المداومة على طاعة الله وشكره ، حيث يلزمه - سبحانه - لم يجعلهم كأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان .

والمعنى : احذروا . أيها المؤمنون - أن تنهضوا بأولئك الذين خرجوا من ديارهم بطرا ومفاخرة . . . واذكروا وقت أن زين لهم الشيطان أعمالهم ، في معادانكم ، بأن وسوس لهم بأنهم على الحق وأنتم على الباطل ، وحسن لهم ما جبلوا عليه من غرور ومراعاة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم عند لقاءكم ، بأن قال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، أى : لن يغلبكم أحد من الناس ، لا محمد - ص - وأصحابه ، ولا غيرهم من قبائل العرب ، وإنى يجير ومعين وناصر لكم ، إذ المراد بالجار هنا : الذى يجير غيره . أى : يؤمنه بما يخاف ويخشى .

قال الألوسى : أى : ألقى في روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون . لكثرة عددهم وعددهم ، وأوهمهم أن أتباعهم إياه . فيما يظنون أنها قربات - تجعله مجرأ لهم ، وحافظا إياهم عن السوء حتى قالوا : اللهم انصر أمدى الفتيين ، وأفضل الدينين . فاقول مجاز عن الوسوسة . والإسناد فى قوله : وإنى جار لكم ، من قبيل الإسناد إلى السبب الداعى . وداكم ، خبر ، لا ، أو صفة وغالب ، والخير محذوف . أى : لا غالب كائننا لكم موجود . و اليوم ، معمول الخير . و من الناس ، حال من ضمير الخير . . . (١) .

وقوله : فلما ترامت الفتنان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ، بيان لما فعله الشيطان وقاله بعد أن رأى ما رأى من قوة لا طاقاة له بها
وقوله : ترامت الفتنان ، أى : تقاربنا بحيث صارت كل فئة ترى الأخرى رؤية واضحة ومنهم من جعل : ترامت ، بمعنى التقت وقوله : نكص على عقبيه ، أى : ولى هاربا ورجعا القهقرى . وأبطل كيده وذهب ما مناهم به من النصرة والعون يقال : نكص عن الأمر نكوصا ونكصا أى : تراجع عنه وأحجم . والعقب : مؤخر القدم .

والمعنى : لقد حرض الشيطان جنوده من الكافرين على حربكم - أيها المؤمنون - ، ومناهم بالنصر عليكم ... ولكنه حينئذ اتى الفتنان : قتلهم وفتنه ، ورأى ما أمدهم الله به الملائكة ، ولما مدرا وقال الكافرين : « إني برىء منكم ، أى : من ههناكم وجواركم ونصرتمكم ، إني أرى ، من الملائكة النازلة لأبيد المؤمنين ما لا ترونه أنتم إني أخاف الله ، أن يعذبني قبل يوم القيامة ، أو إني أخاف الله أن يصيبني بمكره من قبل ملائكته . وقوله « والله شديد العقاب ، يحتمل أنه من كلام إبليس الذى حكاه الله - تعالى - عنه ، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه . عز وجل .

أى : والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره .

هذا ، وهناك قولان فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين :

أحدهما : أن هذا التزيين لم يكن حسيا ، وإنما كان معنويا عن طريق الوسوسة دون أن يتحول الشيطان إلى صورة لإنسان . وعليه يكون قوله « لا غالب لكم اليوم . . . » مجازا عن الوسوسة . قوله « نكص على عقبيه ، استعارة لبطلان كيديه . شبه يطلان كيديه بعد وسوسته بمن رجع القهقرى عما يضافه .

والثانيهما : أن هذا التزيين كان حسيا بمعنى أن الشيطان تمثل لهم فى صورة إنسان ، وقال لهم ما قال عما حكاه الله - تعالى - عنه .

وقد ذكر صاحب الكشف هذين الوجهين فى تفسير الآية فقال : واذكر « إذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، التى عملوها فى معاداة رسول الله ﷺ - ، ووسوس إليهم أنهم لا يفلحون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجبرهم ، فلما تلافى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى : بطل كيديه حين نزلت جنود الله .

وكذا عن الحسن - رحمه الله - قال : كان ذلك على سبيل الوسوسة

ولم يتمثل لهم .

وقيل : لما اجتمعت قریش على السير - لحرب المسلمين في بدر - ذكرت الذي بينها وبين كنانة من الحرب ، فكاد ذلك يشقيهم عن حرب المسلمين ، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جهمم الشاعر الكناني - وكان من أشرافهم - في جند من الشياطين معه رايه وقال : لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بنى كنانة . فلما رأى الملائكة نزل ، نكص .
وقيل : كانت يده في يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحال ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، ودفع صدر الحارث وانطلق وانهمزوا .

فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقه ، فبلغ ذلك سراقه فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمةكم . فلما أسلموا هانوا أنه الشيطان . وفي الحديث - الذي أخرجه مالك في الموطأ - : « وما رأى إبليس يوماً أصفر ولا أدهر ولا أغبط منه في يوم هرة ، لما يرى من نزول الرحمة ، إلا ما رأى يوم بدر » (١) .

وقد ذكر ابن جرير وابن كثير روايات أخرى تتفق في جملتها مع ما ذكره صاحب الكشاف ، وإن كانت تختلف عنها في التفصيل ، ومن ذلك قول ابن جرير :

« وكان تزيينه ذلك لهم كما حدثني المثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية بن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بنى مدلج ، في صورة

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٧ وقوله : « ولا أدهر » الدحور : الطرد والإبعاد . قال ابن حجر : والحديث أخرجه مالك في الموطأ من رواية طلحة ابن عبيد الله ابن كريب مرسلًا ، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب ، وانفراد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك فقال : عن طلحة عن أبيه : قال ابن عبد البر : للصواب مرسل ، حاشية الكشاف ج ٢ ص ٢٢٨ .

حسرة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم مع الناس وإنى جار لكم ، فلما اصطف الناس ، أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبضة من التراب ، فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا الأدبار . وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته .

فقال الرجل : يا سراقه تزعم أنك لنا جار ؟ قال : دأى أرى مالا ترون . إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ، وذلك حين رأى الملائكة .

ثم قال : وحدثنا أحمد بن الفرج ، قال : حدثنا عبد الملك بن العزيز الماجشون ، قال : حدثنا مالك ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن طلحة بن عبد ابن هبيل الله بن كريب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : دأى إبليس يوماً هو فيه أصفر ولا أحقر ولا أغيط ولا أدر من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا رأى يوم بدر . قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما لانه رأى جبريل يزعم الملائكة أى : يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب ، (١) .

وقد سار - ابن جرير وابن كثير - في تفسيرهما للآية على أن التزيين من الشيطان كان حسياً .

فابن جرير يقول . بعد أن ذكر بضع روايات في تفسير الآية : فتأويل وإن الله اسمع عليهم في هذه الأحوال ، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم . أيها المؤمنون لحربكم وقتالكم ، وحسن ذلك لهم ، وحسن عليكم اليوم ، من بنى آدم ، فاطمئنوا وابشروا وإنى جار لكم من كنانة إن تأنيكم من ورائكم . . . واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه ، فلما تراءى

(١) تفسير ابن جرير ١٠ - ١٨ ، وتفسير ابن كثير ٢ - ٢١٧

الفتنان ، يقول : فلما تراخفت جنود الله من المؤمنين ، وجنود الشيطان من الكافرين ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ونكص على عقبيه ، أى : رجع القمصر على قفاه هارباً . . . وقال للمشركين : إني أرى ما لا ترون ، يعنى أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مدداً للمؤمنين ، والمشركون لا يرونهم . . . (١) . وابن كثير يقول : وقوله - تعالى - : وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم . . . الآية .

أى : حسن لهم - لعنه الله - ما جاءوا له ، وما هموا به . . . وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم سيد بنى مدلج . . . ثم قال : فلما رأى إبليس الملائكة ، ونكص على عقبيه ، وقال إني أرى منكم إني أرى ما لا ترون . وهو في صورة سراقه ، وأقبل أبو جهل يحض أصحابه ويقول لهم : لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه . . . (٢) . ومن هذا يتضح أن هذين الإمامين الجليلين يسيران في تفسيرهما للآية الكريمة ، على أن التزيين كان حسيماً ، ويملآن القول بغير ذلك ومن تابعهما في هذا الإمام القرطبي ، فقد ذكر بعض الروايات التي وردت في معنى الآية ، والتي صرحت بأن الشيطان قد تمثل للمشركين في صورة إنسان ، وبني تفسيره للآية على ذلك . . . (٣) .

وقد خالف صاحب المنار هؤلاء الأئمة ، فرجع القول الأول وهو أن التزيين لم يكن حسيماً ، أى أن ما قاله الشيطان لهم من قبيل الوسوسة ، وأنه لم يتمثل لهم في صورة إنسان .

فقد قال - رحمه الله - : قوله : : وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقاله

(١) تفسير ابن جرير ١٠ ص ٢٠

(٢) . . . كثير ٢ ص ٣١٧ ، ص ٣١٨

(٣) راجع تفسير القرطبي ٨ ص ٢٦

لا غالب لكم اليوم من الناس . . . أى : واذكر أيها الرسول للمؤمنين
 - إذ زين الشيطان طهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه
 في هواجسهم لا غالب لكم اليوم من الناس .

فلما تراءت الفئتان فكس على هقيبه ، أى : فلما أقرب كل من الفريقين
 من الآخره .. فكس ، أى : رجع القهقري ... والمراد أنه كف عن تزيينه
 لهم ، وتغريه إياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر
 بحال المقلب على الشيء ، وتركها بحال من ينكس عنه ويولييه دبره . ثم زاد
 على هذا ما يدل براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم ، وهو : وقال إني بريء
 منكم إني أرى مالا أقرون إني أخاف الله ، أى : تبرأ منهم وخاف عليهم ،
 وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .

ثم قال - بعد أن ضعف الروايات التي أوردها ابن جرير وابن كثير -
 والمختار عندنا في تفسير الآية أن الشيطان ألقى في قلوب المشركين أن أحدا
 لن يغلبهم . . (١) .

والخلاصة : أننا بمراجعة أقوال المفسرين في كيفية تزوين الشيطان
 للمشركين ، فراهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

- (أ) قسم منهم ذكر القولين السابقين كيفية التزيين دون أن يرجح
 أحدهما على الآخر ، وعن فعل ذلك . الزمخشري ، والفخر الرازي والأوسى .
- (ب) وقسم منهم سار في تفسيره على أن التزيين كان حسياً ، بمعنى أن
 الشيطان تمثل للمشركين في صورة إنسان وقال لهم ما قال وأهمل القول بأن
 التزيين لم يكن حسياً ، وعن فعل ذلك ابن جرير ، وابن كثير ، والقرطبي
- (ج) وقسم منهم رجح أن التزيين لم يكن حسياً ، بل كان عن طريق

(١) راجع تفسير المنار ج ١٠ ص ٢١ للشيخ رشيد رضا .

الوسوسة ، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين في صورة إنسان ، وقد سار فيه هذا الاتجاه صاحب المنار مشككاً في صحة ما سواه .

والذي نراه بعد هذا العرض لأقوال المفسرين : أن الآية الكريمة صريحة في أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم - ما حكاه القرآن عنه - : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، وأنه حين تراءى الجمعان كذب فعله قوله ، فقد نكص على عقبيه ، وقال للمشركين الذين وعدهم ومناهم بالنصر : إني برى منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب .

ومن العسير علينا بعد ذلك أن نحدد تحديداً قاطعاً كيفية هذا التزيين والقول والنكوص : أهو حمى أم غير حمى ؛ لأن التحديد القاطع لا بد أن يستند إلى نص صريح في دلالاته على المعنى المراد ، وصحيح في نفسه إلى رسول الله - ﷺ - .

وهذا النص غير موجود ، لأن الحديث الذي أخرجه الإمام مالك في موطئه - والذي سبق أن ذكرناه - قال عنه ابن كثير وابن حجر إنه حديث مرسل ، وزيادة على ذلك ففي بعض رجاله من هو ضعيف الحديث كابن الماجشون ، ولأن الروايات التي رويت في تمثيل الشيطان بصورة سراقفة قد جاء معظمها عن ابن عباس ، وابن عباس - كما يقول صاحب المنار - كان سنة يوم بدر خمس سنين . فروايته لأخبارها منقطعة .

إذا فتحن نؤمن بما أثبتته القرآن من أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم ما قاله - ما حكاه القرآن عنه - ، وأنه قد نكص على عقبيه . . إلا أننا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك .

وبعجنى في هذا المقام قول بعض الكاتبين عند تفسيره لهذه الآية : وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم

على الخروج . . . وأنه بعد ذلك ، فكس على عقبيه . . . فخذاهم
وتركهم بلا قون مصيرهم وحدهم .

والكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم والتي قال لهم بها :
لا غالب لكم اليوم من الناس . . . والتي فكس بها كذلك .

الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله فيب ،
ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء من أمره إلا بنص قرآني أو حديث نبوي
صحيح ، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يشهد الحادث .

فإلى هنا ينتهي اجتهادنا ، ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ
محمد عبده في التغير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً
مميئاً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم ، وذلك كقول للشيخ رشيد رضا
في تفسير الآية .

« وإذ زين لهم للشيطان أعمالهم . . . أي واذكر أيها الرسول
للمؤمنين إذ زين للشيطان هؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم
بما ألقاه في هواجهم : لا غالب لكم اليوم من الناس . . . الخ ما ذكره
الشيخ رشيد في تفسير الآية (١) .

هذا ، وقوله - تعالى - بعد ذلك : « إذ يقول المنافقون والذين في
قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم . . . » بيان لصنفين آخرين من أعداء المسلمين
بعد بيان العدو الرئيسي وهم المشركون الذين خرجوا بطراً ورتاء الناس
لمحاربة الإسلام وقد شجعهم الشيطان على ذلك .

قال الفخر الرازي : أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج -
كانوا بظهور الإسلام ويخفون الكفر ولم يخرج منهم أحد إلى بدو سوى

(١) راجع تفسيره في ظلال القرآن ، ١٠٨ ص ٣٠ - للاستاذ سيد
قطب - وقد نقلنا قبل ذلك جانباً من كلام صاحب المنار .

عبد الله بن أبي - وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا ولم يهاجروا .

ثم إن قريش لما خرجوا لحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أولئك : نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه ، وإن كان في قلة أقننا في قومنا . .

وعامل الأعراب في ذلك ، إذ فيه وجهان : الأول : التقدير ، والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون . . .

والثاني : اذكروا إذ يقول المنافقون . . (١) .

وقوله : دغ ، أى : خدع ، من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان .

أى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غر هؤلاء المؤمنین دينهم أى : خدعهم ، لأنكم أقدمتم على قتال قوم يفرقونكم عدة وعددا ، وهذا القتال - فى زعمهم - لون من إلقاء النفس إلى التهلكة ، لأنهم قوم لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم لخراب بواطنهم من العقيدة السليمة ، لا يعرفون أثرها فى الإقدام من أجل نصره الحق ولا يقدرُونَ ما عليه أصحابها من صلة طيبة بالله - عز وجل - الذى بيده النصر والهزيمة . . .

وما داموا قد فقدوا تلك المعرفة ، وهذا التقدير ، فلا تستبعدوا منهم - أيها المؤمنون - أن يقولوا هذا القول عنكم ، فذلك مبلغهم من العلم ، وتلك موازينهم فى قياس الأمور . . .

والحق ، إن الإنسان عندما يتدبر ما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض

في حق المؤمنين عندما أقدموا على حرب أعدائهم في بدر . . .
أقول : عندما يتدبر ذلك ليرى أن هذا القول دأب كل المنافقين والذين
في قلوبهم مرض في كل زمان ومكان .

إننا في عصرنا الحاضر رأينا كثيرين من أصحاب العقيدة السليمة ،
والنفوس النقية ، والقلوب المضحية بكل شيء في سبيل نصرة الحق . . رأينا
هؤلاء يلبثون رسائل الله دون أن يخشوا أحدا سواه ويهاجمون الطغاة
والمبطلين والفجار ، لئلا نكونوا لدين الله في الأرض ، حتى ولو أدت بهم هذه
المهاجمة إلى بذل أرواحهم . .

ورأينا في مقابل هؤلاء الصادقين أقواما - ممن آثروا شهوات الدنيا على
كل شيء - لا يكتفون بالصمت وهم يشاهدون أصحاب العقيدة السليمة
يهاجمون الطغاة .

بل هم - بسبب خلو نفوسهم من المثل العليا - يلقون باللوم على هؤلاء
المؤمنين ، ويقولون ما حكماء القرآن من أقوال في أشباههم السابقين من
المنافقين والذين في قلوبهم مرض : « ع هؤلاء دينهم » .

إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنونها بميزان الإيمان .
إن المؤمن يرى التضحية في سبيل الحق مؤدية إلى إحدى الحسنيين
النصر أو الشهادة .

أما هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، فلا يرون الحياة إلا متعة
وشهوة وغنيمة فإن أعطوا امنها رضوا وإن لم يعطوا امنها إذا هم يستخطون ، (١)
وقوله - تعالى - « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، حص
للمؤمنين على التمسك بما يدعوهم إليه إيمانهم من استقامة وقوة . .

سورة النوبة الآية ٥٨

(م ١١ - سورة الأنفال)

أى : ومن بكل أمره إلى الله ، ويشق به - ينصره - سبحانه - على أعدائه -
فأبانه - عز وجل - عزيز لا يغلبه شيء ، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد صوّرت تصويراً بديعاً ما عليه
الكافرون وأشباههم من بطر ومفاخرة وصد عن سبيل الله . ومن طاعة
للشيطان أوردتهم الممالك . .

وحكت ما قالوه من أقوال تدل على جهلهم واطمأن بصيرتهم . .
ونعت المؤمنين عن التفتبه بهم ، لأن للبطر والمفاخرة والبغى ، والاتباع
للشيطان : . . كل ذلك يؤدى إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ولقد كان أبو جهل قه فى البغى والبطر والمراواة عندما قال - بعد أن
نصحه الناصحون بالرجوع عن الحرب فقد نجت للدير : - لا أن أرجع حتى
نرد بدرأ ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، ونمزق القيان علينا ،
فلن تزال العرب تهابنا أبداً . .

وعندما بلغت مقالة أبى جهل أبا سفيان قال : واقوماه !! هذا عمل عمرو
ابن هشام ، يعنى أبا جهل ، كره أن يرجع ؛ لأنه ترأس على الناس فبغى ،
والبغى منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النفير ذلنا . .

وصدقت فراسه أبى سفيان ، فقد أصاب محمد - ~~عليه السلام~~ - النفر
وتسرّب المشركون بالذل والهوان فى بدر بسبب بطرهم وريائهم وصددهم
عن سبيل الله ، واتباعهم لخطوات الشيطان .

فاللهم نسألك أن تواقنا إلى ما يرضيك ، وأن تجنبنا البطر والرياء
وسوء الأخلاق .

وبعد هذا البيان لأحوال الكافرين فى حياتهم ؛ انتقل القرآن لبيان
أحوالهم عند مماتهم .

فقال - تعالى - : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمُ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٦﴾

والخطاب في قوله - تعالى - : «ولو ترى...» للنبي - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب و «لو» شرطية ، وجوابها محذوف لتفطيع الأمر وتمويله . والمراد بالذين كفروا : كل كافر وقيل المراد بهم قتل غزوة بدر من المشركين . قال ابن كثير : وهذا السياق وإن كان سببه غزوة بدر ، ولكنه عام في حق كل كافر . ولهذا لم يخصصه الله بأهل بدر بل قال - سبحانه - «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم...» (١) . والفعل المضارع هنا وهو «تري» بمعنى الماضي ، لأن لو الامتناعية ترد المضارع ماضياً .

والفعل «يتوفى» فاعلة محذوف للعالم به وهو الله - عز وجل - وقوله : «الذين كفروا» هو المفعول وعليه يكون : «الملائكة» مبتدأ ، وجملة «يضربون وجوههم...» خبر .

والمعنى ولو طينت وشاهدت أيها العاقل حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم ، لعابنت وشاهدت منقراً مخيفاً ، وأمرأ فظيماً تشعرونه وله الأبدان ثم فصل الله - سبحانه - هذا المنظر المخيف بجملة مستأنفة فقال ، «الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم» والمراد بوجوههم : ما أقبل منهم ، وأدبارهم : ما أدبر وهو كل الظهور .

أى : الملائكة عند ما يتوفى الله - تعالى - هؤلاء الكفرة يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ، لإعراضهم عن الحق ، وإيثارهم الغى على الرشد .
ومنهم من يرى أن الفعل : يتوفى ، فاعله : الملائكة ، وأن قوله : الذين كفروا ، هو المفعول وقدم على الفاعل للاهتمام به .
وعليه تكون جملة : يضربون وجوههم .. ، حال من الفاعل وهو الملائكة .
فيكون المعنى : ولو رأيت - أيها العاقل - حال الكافرين عندما تتوفى الملائكة أرواحهم فتضرب منهم الوجوه والأدبار ، لرأيت عندئذ ما يؤلم النفس ، ويخيف الفؤاد .

ويبدو لنا أن التفسير الأول أبلغ ، لأن توضيح وتفصيل الرؤية بالجملة الاسمية المستأنفة خير منه بجملة الحال ، ولأن إسناد التوفى إلى الله أكثر مناسبة هنا ، إذ أن الله - تعالى - قد بين وظيفة الملائكة هنا فقال : يضربون وجوههم وأدبارهم . .

- وخمس - سبحانه - الضرب للوجوه والأدبار بالذكر ، لأن الوجوه أكرم الأجزاء ، ولأن الأدبار هي الأماكن التي يكره الناس التحدث عنها فضلا عن الضرب عليها . أو لأن الخزي والذكال في ضربهما أشد وأعظم .

وقوله : وذوقوا عذاب الحريق ، معطوف على قوله : يضربون ، بتقدير القول . أى يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التي كنتم تكذبون بها في الدنيا .

والذوق حقيقة إدراك المعامومات . والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه .

والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم ، كما في قوله - تعالى - : نقبشهم بعذاب أليم ، وهو أيضا يشعر بأن ما وقع

عليهم من عذاب إنما هو بمنزلة المقدمة لما هو أشد منه ، كما أن الذوق عادة يكون كالمقدمة للمعلوم أو الشيء المذاق .

وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » بيان للأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيئ . وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بمقوم صنيعهم ، وانقيادهم للهوى والشيطان .

أي : ذلك الذي نزل بكم - أيها الكافرون - من الضرب وعذاب النار ، سببه ما قدمته أيديكم من عمل سيئ ، وفعل قبيح ، وقول منكر ، وجحود للحق وأن الله - تعالى - ليس بظالم لكم ولا أخيركم ، لأن حكمته سبحانه - قد اقتضت ألا يعذاب أحدا إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وجرم اقترفه .

فلم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى الضرب وعذاب الحريق ، وهو مبتدأ وخبره قوله : « بما قدمت أيديكم » .

والمراد بالأيدي : الأنفس والذوات . والتعبير بالأيدي عن ذلك من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .

وعصت الأيدي بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدي ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الاتصال به ، والاتصال بذاته .

وقوله : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ، خير لمبتدأ محذوف ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر المضمون ما قبله .

أي : ذلك الذي نزل بكم سببه ما قدمته أيديكم ، والأمر أن الله - تعالى - ليس بمعذاب لعبيده من غير ذنب جنوه .

ومحذوف أن يكون معطوفا على « ما » ، المجرورة بالباء . أي : ذلك بسبب ما قدمه أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قال بعض العلماء : فإن قيل ما سر التعبير بقوله « وظلام » بالمبالغة ، مع أن

فنى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرتة ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، ويرجع النفى للقييد ؟

وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرتة ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهم جرا ، فلما جمع هؤلاء عدل إلى ظلام ، لذلك ، أى : لكثرة الكمى فيه .

ومنما : أنه إذا انتفى الظلم والكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم يظلم للانتفاع بالظلم ، فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضرر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركا .

ومنما : أن ظلما ، للنسب كعطار ، أى : لا ينسب إليه الظلم أصلا .

ومنما : أن كل صفة له - تعالى - فى أكل المرائب ، فلو كان

- سبحانه - ظلما ، كان ظلما ، فنفى اللازم نفى للملزم .

ومنما : أنه نفى للظلام ، لنفى الظالم ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى

كأله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالا من اللازم إلى الملزم .

ومنما : أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المذهب بمثله

ظلما بليغ الظلم متفقا ، فالمراد تنزيهه - تعالى - وهو جدير بالمبالغة .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله - ﷺ - أن الله

- تعالى - يقول : يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم

حرما ، فلا تظالموا ، (١) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد بينتا حالة المشر كين عند قبض أرواحهم

بيننا يحمل النفوس على الإيمان والطاعة لله - تعالى - فقد رسم القرآن صورة

مفرقة لهم ، صورة الملائكة وهم تضرب وجوههم وأديارهم بأمر من الله

- تعالى - الذى ما ظلمهم ، ولكنهم هم الذين أحلوا بأنفسهم هذا المصير الموقر

المؤمن ، حيث كفروا بالحق ، وحاربوا أنبياءه ، واستحبوا العمى على الهدى

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين في كفرهم وطغيانهم كمادة من سبقهم من الأمم الظالمة وإن من سنة الله - تعالى - في خلقه ألا يعاقب إلا بذنب،

وأن لا يغير النعمة إلا لسبب . فقال - تعالى - :

كَذَّبَ آلِ

فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً

أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

والكاف في قوله : كذاب . . . ، للنشبية ، والجار والمجرور في موضع

رفع خبر لمبتدأ محذوف .

والدأب : أصله الدوام والاستمرار . يقال : دأب فلان على كذا بدأب

دأباً - بفتح الهمزة - ودأباً - بسكونها - ودهوياً ، إذا دوام عليه وجد فيه .

ثم غلب استعماله في الحال والشأن والعادة ، لأن الذي يستمر في عمل أمده طويلاً

يصير هذا العمل عادة من عاداته ، وحالاً من أحواله ، فهو من باب إطلاق

الملزوم وإرادة اللزوم .

والآل - كما قول الراغب - مقلوب عن الأهل ، ويصغر على أهيل ، إلا

أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأئمة والأمكنة

يقال : آل فلان ، ولا يقال : آل رجل . . . ولا يقال : آل الحجام . . . بل يضاف

إلى الأشراف والأفضل فيقال : آل الله ، وآل السلطان . والأهل يضاف إلى

كل ، فيقال : أهل الله ، وأهل الحجام ، وأهل زمان كذا . . . ، (١)

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٣٠ .

والمقصود آل فرعون: هو وأهوانه وبطائنه ، لأن الآل يطلق على
أهد الناس التصاقا واختصاصا بالمضاف إليه .

والعنى : شأن هؤلاء الكافرين الذين حاربوك يا محمد ، والذين ملك منهم
من ملك في بدر ، شأنهم وحالهم وعادتهم فيما اقترفوه من الكفر والعصيان وفيما
فعل بهم من عذاب وخذلان ، كشأن آل فرعون الذين استحبوا العمى على
الهدى ، والذين زينوا له الكفر والطغيان حتى صار عادة له ولهم ،
وقد أخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر . بسبب كفرهم وفجورهم .
وقد خص - سبحانه - فرعون وآله وبالفكر من بين الأمم الكافرة ،
لأن فرعون كان أشد الطغاة طغيانا ، وأكثرهم غرورا وبطرا ، وأكثرهم
في الاستهانة بقومه وفي الاحتقار لعقولهم وكيانهم .

ألم يقل لهم - كما حكى القرآن عنه - : أنا ربكم الأعلى ، (١) ،
والم يبالغ به غروره أن يقول لهم : : أليس لى ملك معى وهذه الأنهار
تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، (٢) ؟

أما آل وبطائنه وأهوانه ، فهم الذين زينوا له سوءه ، وحرصوه على
البطش بموسى لأنه جاءهم بالحق ، ولقد حصى الله عنهم نفاقهم وضلالهم
وانغماسهم فى الآثام فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى - : وقال الملا من
قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآل هتك ؟
قال : سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ولما فوقهم قاهرون ، (٣) .

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وقهارة العقل ،
والخروج عن كل مكرمة فقال : : فاستخف قومه فاطاعوه إنهم كانوا قوما
فاسقين ، (٤) وذلك لأن الأمة التى تترك الظالم وبطائنه يعيشون فى الأرض

(١) سورة النازعات الآية ١٤

(٢) الزخرف ٥١

(٣) الأعراف ١٢٧ (٤) سورة الزخرف الآية ٥٢

فسادا ، لاستحقاق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .
وقوله : كفروا بآيات الله ، تفسيرهم اصنيعهم الباطل ، ودأبهم على
الفساد والضلال .

والمراد بآيات الله : ما يعم المتلوة في كتب الله — تعالى — ، والبراهين
والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .
وفي إضافتها إلى الله : تعظيم لها وتشريف ، وتنبية إلى قوة دلالتها على
الحق والخير .

وقوله : فأخذهم الله بذنوبهم ، معطوف على قوله : كفروا بآيات الله .
ليبين ما قربت على كفرهم من عقوبات ألهمه .
وفي التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العذاب ، فهو — سبحانه — قد
أخذهم كما يؤخذ الأسير الذي لا يستطيع الفكاك من أمره .
والباء في قوله : بذنوبهم ، للسببية أي كفروا بآيات الله فعاقبهم
— سبحانه — بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمره .
ويجوز أن تكون للملابسة ، أي : أخذهم وهم ملتهسون بذنوبهم
دون أن يتوبوا منها ، أو يخلصوا منها .

وعلى الوجهين فالجدة الكريمة تدل على كمال عدل الله — تعالى — لأنه
ما عاقبهم إلا أنهم استحقوا العقاب .
والمراد بذنوبهم : كفرهم وما ترتب عليه من فسوق وهسيان ، وأصل
الذنب : الأخذ بذنب الشيء أي بمؤخرته ، ثم أطلق على الجريمة ، لأن
مرتكبها يعاقب بعدها .

وقوله : إن الله قوى شديد العقاب ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله من
الأخذ الشديد ، بسبب الكفر والمعاصي .

أي : إن الله — تعالى — قوى لا يغلبه غالب ، ولا يدفع قضاءه دافع
شديد عقابه إن كفر بآياته ، وفسق عن أمره .

وقوله : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا حباً بأنفسهم ... » بيان لسنة من سنته - تعالى - في خلقه ، وتعليل لتعذيب أولئك الكفار ، وسلب نعمه عنهم وعن أشباههم من العصاة والجاحدين واسم الإشارة : « ذلك » يعود إلى تعذيب للكفرة المعبر عنه بقوله - تعالى - « فأخذم الله بذنوبهم » .

وهو ، أى : اسم الإشارة مبتدأ ، وخبره قوله - سبحانه - « بأن الله لم يك مغيراً ... » إلخ .

والمعنى : ذلك الذى نزل بهؤلاء المكفرة من التعذيب والتخذلان عدل إلهى ، فقد جرت سنته - سبحانه - في خلقه ، واقتضت حكمته في حكمه ألا يبدل نعمة بنقل إلا بسبب ارتكاب الذنوب ، واجترأ السيئات ، فإذا لم يتلق الناس نعمه - عز وجل - بالشكر والطاعة ، وقابلوها بالكفر والمعصيان ، بدل نعمتهم بنقم جزاء وفاقا .

وشبهه بهذا قوله - تعالى - في آية أخرى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) .

قال الفخر الرازى : قال القاضى : معنى الآية أنه - تعالى - أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ، ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله - تعالى - على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم ، والمنح بالمحن .

قال : وهذا من أو كلما يدل على أنه - تعالى - لا يتبدى أحداً بالعذاب والمضرة . . (٢) .

(١) سورة الرعد الآية ١١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٨١ .

وقال صاحب الكشف : « فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون
والمشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حال مرضية فيغيرها
إلى حال مسخوطة ؟

قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة
أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول - ﷺ - إليهم كفر
عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحربوا
عليه ساعين في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله
مما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ، (١) .

وقوله : « وأن الله سميع عليم ، معطوف على قوله : « بأن الله لم يك
مغيراً نعمته ... إلخ .

أي : ذلك التعذيب بسبب جحودهم للنعم ، وبسبب أنه - سبحانه - سمع
لما نطقوا به من سوء ، وعليم بما ارتكبوه من قبائح ومنكرات ، وقد
عاقبهم على ذلك بما يستحقون من عذاب : « وما ظلمهم ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون » .

ثم ذكر - سبحانه - ما عليه المشركون من جحود وغرور وعناد على سبيل
التأكيد والتوبيخ فقال : « كذب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات
ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون ، وكل كانوا ظالمين » .

أي شان هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشان آل فرعون ومن
لقدّمهم من الأنوام السابقة ، كفوم نوح وقوم هود ... ، كذب أولئك
جميعاً بآيات ربهم التي أوجدها - سبحانه - لهدايتهم وسعادتهم . فكانت
نتيجة ذلك أن أهلكهم - سبحانه - بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، وبسبب
استعمالهم للنعم في غير ما خلقت له .

« وأغرقتنا آل فرعون ، الذين زينوا له الكفر والبطار والطغيان ، .
 « وكل كانوا ظالمين ، أى : وكل من الأقوام المذكورين ومن على
 شاكلتهم فى الكفر والضلال ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ولأنبيائهم
 بسبب معاديتهم لهم ، وإعراضهم عنهم مع أن الأنبياء ما جاءوا إلا لهدايتهم .
 وجع للضمير فى « كانوا ، وظالمين ، مراعاة لمعنى « كل ، لأنها متى
 قطعت عن الإضافة جاز مراعاة لفظها تارة ، ومراعاة معناها أخرى ،
 واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل .

قال الجمل : « فإن قلت ، ما الفائدة من تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟
 قلت : فيها فوائد منها : أن الكلام الثانى يجرى بجرى التفصيل للكلام
 الاول ، لأن الآية الاولى فيها ذكر أخدم ، والثانية ذكر إغراقهم فذلك
 تفسير للاول .

ومنها : أنه ذكر فى الآية الاولى أنهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية
 أنهم كذبوا بآيات ربه ، وفى الآية إشارة إلى أنهم كفروا بآيات الله
 وجحودها ، وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها ، وكفرهم بها .
 ومنها : « أن تكرير هذه القصة للتاكيد ، (١) .

وبعد ، فإن المتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور تصويراً
 واضحاً سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أنه - سبحانه - لا يسلب نعمه عن
 قوم إلا بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنه - تعالى - لا ينزل عقوباته بهم إلا بعد
 لجاحهم فى طغيانهم ، وإدبارهم عن نصيح الناصحين .

ورحم الله الأستاذ الإمام محمد عبده فقد كتب مقالا جيداً صدره
 بقوله تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمها على قوم حتى يغير ذلك
 ما بأنفسهم . . . » .

وعما جاء في هذا المقال قوله : « تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . . . »

أرشدنا - سبحانه - إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومعى اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها - سبحانه - على أساس الحكمة البالغة . إن الله لا يغير ما بقوم من عز وسلطان ، ورفاعة وحفض عيش ، وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل ، وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار . ثم اعدو لهم عن سنة العدل ، وخرجوهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحية على الحق ، والقيام بنصرتهم والتعاون على حمايتهم . . خذوا العدل ولم يجمعوا مهمهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية . . فآخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للعالمين .

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونمائها في النجلى بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها .

سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته - سبحانه - في الخلق والإيجاد ، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال . . . (١) .

وبعد أن شرح - سبحانه - أحوال المهلكين من شرار المكفرة ، شرع في بيان أحوال الباقين منهم ، وتفصيل أحكامها ، فقال - تعالى - :

(١) راجع تفسير المنار ج ٢ ص ٤٦ ففيه المقال بتمامه .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ
عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾
فَإِذَا تَشَفَّفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا
يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قال الفخر الرازي : اهل أنه - تعالى - لما وصف كل الكفار بقوله :

« وكل كافروا ظالمين ، أفرد بعضهم بجزية في الشر والعناد فقال : « إن شر
الدواب عند الله ، أى : في حكمه وعلمه من حصلت له صفتان :

الأولى : الكافر الذى يكون مستمراً على كفره مصراً عليه ...

الثانية : أن يكون ناقضاً للعهد على الدوام ...

قال ابن عباس : هم بنو قريظة ، فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ
وأعانوا عليه المشركين بالسلاح في يوم بدر . ثم قالوا : أخطأنا ، فعاهدتهم
مرة أخرى فنقضوه أيضاً يوم الخندق ... (١) .

والدواب : جمع دابة . وهى كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى -
« والله خالق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى
على رجليه ، ومنهم من يمشى على أربع » ... (٢) .

قال الجمل : « وإطلاق الدابة على الإنسان إطلاق حقيقى ، لما ذكرهم
في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدمياً . وفي المصباح :
الدابة كل حيوان في الأرض مميّزاً وغير مميّز » ، (٣) .

والمعنى : « إن شر ، ما يدب على الأرض » عند الله ، أى : في حكمه
وقضائه « الذين كفروا ، أى : الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٨٢ (٢) سورة النور ، الآية ٥٥

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٢٦

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم شر الدواب لشر الناس ، الإشعار بأنهم
معمول هما يتحلى به الناس من تعقل وتدبر للأمور ، لأن لفظ الدواب وإن
كان يطلق على الناس ، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلالا خاصا يجعل العقول
تتجه إلى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التي لا تعقل
أقرب منهم إلى الآدميين العقلاء ، وفي وصفه - سبحانه - لهم بأنهم شر الدواب
زيادة توبيخ لهم ، لأنهم ليسوا دوابا لحسب بل هم شر ما وأخسها .

وقوله : « فهم لا يؤمنون » ، تذييل جرى به على وجه الاعتراض بالبيان
أى : أنهم - بسبب إصرارهم على الكفر - صار الإيمان بعيدا عنهم ،
وأنهم سواء أُنذروا أم لم ينذروا مستمررون في الضلال والعناد .

وقوله : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة .. » بدله
من الموصول الأول وهو قوله : « الذين كفروا .. » ، أو عطف بيان له .
أى : إن شر الدواب عند الله الذين أصرروا على الكفر ورسخوا فيه ،
الذين عاهدت منهم ، أى : أخذت منهم عهدهم ، ثم ينقضون عهدهم في كل
مرة ، دون أن يفوا بعهدهم ولو مرة واحدة من المرات المتعددة .
فقوله : « عاهدت » ، مضمن معنى الأخذ ، ولذا عدى بمن .

قال الألوسي : قوله : « الذين عاهدت منهم .. » ، بدل من الموصول
الأول ، أو عطف بيان ، أو نعت ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو نصب على
الفهم ، وعائد الموصول قيل : ضمير الجمع المجرور ، والمراد : عاهدتهم ،
و « من » ، الإيذان بأن المعاهدة - التي هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه
من الجانبين - معتبرة هنا من حيث أخذه - والتعبد - ، إذ هو المناط لما
نعى عليهم من النقص ، لا إعطاؤه - عليه الصلاة والسلام - لإياهم عهده
كأنه قيل : الذين أخذت منهم عهدهم ، وقال أبو حيان : إنما تبعيضية ،
لأن المباشر بعضهم لا كامل .. ، (١) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٢٢

وقوله : « ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، معطوف على الصلة .
 وكان العطف ، بـ ثم ، المفيدة للتراخي ، الإيذان بالتفاوت الشديد بين
 ما أخذ عليهم من عهد ، وبين ما تردوا فيه من نقض لها ، واستهانة بها .
 وجيء بصيغة المضارع « ينقضون » ، المفيدة للحال والاستقبال ، للدلالة
 على تعدد النقض وتجدده ، وأنهم على نيته في كل مرة يعاهدون فيها غيرهم
 وقوله : « وهم لا يتقون » ، في موضع الحال من فاعل « ينقضون » .
 أي : أن هؤلاء القوم دأبهم نقض العهود والمواثيق في كل وقت ، ومع
 ذلك لحالهم وشأنهم أنهم لا يشعرون خلال نقضهم للعهد بأي تخرج
 أو خجل ، بل يرتكبون ما يرتكبون من المنكرات دون أن يتقوا عارها ،
 أو يخشوا سوء عاقبتها .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء الناقضين لعهودهم
 في كل مرة بدون حياء أو تدبر للعواقب فقال : « فإذا تثقفنهم في الحرب فشرد
 بهم من خلفهم لمهم يذكرون ، قالفاء في قوله « فإذا » ، اقتريب ما بعدها
 على ما قبلها .

وقوله : « تثقفنهم » من الثقف بمعنى الحلق في إدراك الشيء وفعله .
 قال الراغب : يقال ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحلق في النظر .
 ثم يتجاوز فيه فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافته . قال - تعالى -
 « فإذا تثقفنهم في الحرب » (١) .

وقوله : « فشرد بهم » من التشديد وهو عبارة عن التفريق مع الاضطراب .
 يقال شردت بني فلان ، أي : قلعتهم عن مواطنهم وطردتهم عنها حتى فارقوها
 قال الشاعر :

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يعرد بي حكيـم

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٧٩ .

أي : متخافة أن يسمع بي ويطردني حكيم ، وحكيم رجل من بنى سليم كانت قريش قد ولته الأخذ على أيدى السفهاء .

والمعنى : إنك يا محمد إذا ما أدركت في الحرب هؤلاء الكافرين الناقضين لعهودهم وظفرت بهم - وهم بنو قريظة ومن لف لفهم - .. فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل يتفرق معه جمع كل ناقض للعهد ، وينزع منه كل من كان على شاكلتهم في الكفر ونقض العهود ، ويعتبر به كل من سمعه من أهل مكة وغيرهم .

فالباء في قوله ونفرد بهم ، للسببية ، وقوله ومن خلفهم ، مفعول شرد . والمراد بمن خلفهم : كفار مكة وغيرهم من الضالين ، أي : افعل ببني قريظة ما يشرد غيرهم خوفا وفزعا .

وقوله واعلمم يذكرون ، أي : لعل أولئك المشركين يتعظون بهذا القتل والتنكيل الذي نزل بهؤلاء الناقضين لعهودهم في كل مرة ، فيمنعهم ذلك عن نقض العهد .

هذا ، وإن تلك الآية الكريمة لمن أحكم الآيات التي ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستعمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم للعهود أخذا شديدا رادعا .. حتى يبقى المجتمع الإسلامي أمانه واستقراره وهيئته أمام أعدائه . إن الآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذي يكفي السماع به للهرب والشرود ، فما بال من يحمل هذا الأخذ الشديد ؟ إنها الضربة المروعة ، يأمر الله - تعالى - رسوله أن ينزلها على رأس كل مستحق لها بسبب كفره وتلاعبه بالعهود . . . وبذلك تبقى لدين الله هيئته وسطوته .

هذا هو حكم المصيرين على كفرهم الناقضين لعهودهم . . أما الذين تخشى

منهم الخيانة فقد بين - سبحانه - حكمهم بقوله : **«إِذَا مَا تَخَافُنَ مِنْ قَوْمٍ**
خِيَانَةٌ فَانْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنْ أَنْتَ لَا يَجِبُ الْخَائِذِينَ ،

وقوله : **«تَخَافُنَ ، مِنْ الْخَوْفِ وَالْمَرَادُ بِهِ هَذَا الْعِلْمُ .**

وقوله **«فَانْذِرْ ، مِنْ الْإِنْذِيرِ بِمَعْنَى الْمُنْذِرِ ، وَهُوَ مَجَازٌ عَنْ إِعْلَامِهِمْ بِأَنْهُمْ**
لَا يَهْدِيهِمْ بَعْدَ الْيَوْمِ . فَشَبَّهَ - سبحانه - الْعَهْدَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَرْمِي أَعْدَمَ
الرَّغْبَةِ فِيهِ ، وَثَبَّتَ الْإِنْذِيرَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّخْيِيلِ ، وَمَفْعُولُ «فَانْذِرْ ، مُحْذَوْفٌ
أَيْ : فَانْذِرْ لَهُمْ عَهْدَهُمْ .

قال الجمل : وقوله **«عَلَى سَوَاءٍ ، حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ مَعًا ، أَيْ :**
فَاعِلُ الْفِعْلِ وَهُوَ ضَمِيرُ النَّبِيِّ - ﷺ - وَمَفْعُولُهُ وَهُوَ الْمَجْرُورُ بِإِلَى .

أى : حال كونكم مستوين في العلم بطرح العهد . فعليك أنت به لأنه
 فعل نفسك ، وعلمهم به بإعلامك إياهم ، فكأنه قيل في الآية : **«فَانْذِرْ عَهْدَهُمْ**
وَأَعْلَمَهُمْ بِإِنْذِهِمْ ، وَلَا تَقَاتِلْهُمْ بَعْدَ لَثَلَايَتِهِمْ وَنَكَرِكَ بِالْغَدْرِ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ
شَأْنِكَ وَلَا مِنْ صِفَاتِكَ ، (١) .

والمعنى : وإما تعلمن - يا محمد - من قوم بينك وبينهم عهد ومفارقتهم
 نقضه خيانة منهم ، بأمارات تلوح لك تدل على غدركم ، فاطرح إليهم
 عهدهم على طريق مستو ظاهر : بأن تعلمهم ببذك عهدهم قبل أن يحاربهم ،
 حتى تكون أنت وهم في العلم ببذك العهد سواء ، لأن الله - تعالى - لا يحب
 الخائنين وإن من مظاهر الخيانة التي يبغضها الله - تعالى - أن يحارب أحد
 المتعاهدين الآخر دون أن يعلمه بإنهاء عهده .

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة
 عن أبي الفيص من سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد .

وكان يسير نحو بلادهم ايقرب منها ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر الله أكبر ، وفاء لا غدرا : إن رسول الله ﷺ قال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدما أو ينبذ إليهم على سواء » .

قال : فبلغ ذلك معاوية فرجع . فإذا بالشيخ همرو بن عتبة ، . ثم قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه أبو داود للطيالسي عن شعبة . وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذي حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه :

دعونا أدهوم كما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدهوهم . فقال : إنما كنت رجلا منكم فهداني الله إلى الإسلام ، فإن أسلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا . وإن أقم أيدتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون فإن أبيتم فإنا نأبئناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله ، (١) .

وقال الفخر الرازي : قال أهل العلم : آثار نقض العهد إذا ظهرت . فإما أن تظهر ظهوراً محتملاً ، أو ظهوراً مقطوعاً به .

فإن كان الأول : وجب الإهلام على ما هو مذكور في هذه الآية ، وذلك لأن بني قريظة عاهدوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرهم على رسول الله ، فحصل لرسول الله ﷺ - خوف الغدر منهم به وبأصحابه ، فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء ويؤذنهم بالحرب .

أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به ، فهنا لا حاجة إلى نفي العهد ، وذلك كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأهل مكة ، فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة النبي - صلى الله عليه وسلم - وصل إليهم جيش رسول الله يمر للطهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة ، (١) .

أى : أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان . وبذلك نرى تعالىم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أعلى آفاق الوفاء والشرف والأمان . . . وتحقر من شأن الخيانة والخائنين ، وتوقعهم بالطرد من رحمة الله ، وبالبعد عن رضوانه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الكافرين لن ينجوا من عقابه ، وبشر المؤمنين بالنصر عليهم فقال : « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون » وقوله « يحسبن » من الحسبان بمعنى الظن . وقد قرأ ابن عامر وحفص وحزرة « يحسبن » بالياء . وقرأ الباقر بالتاء .

وقوله : « يعجزون » من العجز . وأصله - كما يقول الراغب - : التأخر عن الشيء . . . ثم صار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة . . . والعجز سمي بذلك لعجزها في كثير من الأمور . . . (٢) . والمعنى - على القراءة بالياء - : « ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم أنهم قد سبقوا الله فنجوا من عقابه ، وخلصوا من عذابه . . . كلا إن حسابهم هذا باطل ، لأنهم لا يعجزون الله ، بل هو - سبحانه - قادر على إهلاكهم وتعذيبهم في كل وقت . . . »

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٢٢٠

(٢) المفردات في غريب القرآن ج ٣ ص ٣٢٢

وأن نجاتهم من القتل أو الأسر في الدنيا ان تنفعهم شيئاً من العذاب المهيمن في الآخرة .

وهي هذه القراءة يكون فاعل ، يحسن ، قوله ، الذين كفروا ، ويكون المفعول الأول ليحسن محذوف أى : ولا يحسن الذين كفروا أنفسهم . . والمفعول الثاني جملة ، سبقوا ، وأما على القراءة الثانية ، ولا تحسن ، فيكون قوله ، الذين كفروا ، هو المفعول الأول . وجملة ، سبقوا ، هي المفعول الثاني . أى : ولا تحسن - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء الكافرين قد سبقونا بخيائهم لك ، أو أفلتوا عن عقابنا وصاروا في مأمن منا ... كلا ، لأنهم لا يعجزوننا عن إدراكهم وإزالة العقوبة بهم في أى وقت نريده ونعازما فنحن لا يعجزنا شيء . . .

وعلى كلتا القراءتين فالقصود من الآية الكريمة . قطع أصبا الكافرين في النجاة ، وإقناطهم من الخلاص ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن من لم يصبه عذاب الدنيا ، فسوف يصيبه عذاب الآخرة ، ولا مفر له من ذلك مادام قد استحب الكفر على الإيمان . أما المؤمنون فلهم من الله - تعالى - التأييد والنصر وحسن للمعافاة .

ثم أمر - سبحانه - المؤمنين بإعداد وسائل القوة التي بها يصلون إلى النصر ، وإلى بعث الرعب في قلوب أعدائهم . . . فقال - عز وجل - :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ
يَعْلَهُمْ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

وقوله : « وأعدوا .. » معطوف على ما قبله ، وهو من الإعداد بمعنى تهيئة الشيء للمستقبل . والخطاب لكافة المؤمنين .

والرباط في الأصل مصدر ربط ، أى شد . ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً .
وكثر استعماله في الخيل التي تربط في سبيل الله . فإضافة إما باعتبار عموم
المفهوم الأصلي ، أو لملاحظة كون الرباط مهتركا بين معان أخر كإلزامه الثغور ،
والمراطبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان .

قال صاحب الكشف : والرباط : اسم للخيل التي تربط في سبيل الله .
ويحوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المراقبة . ويحوز أن يكون جمع
ربط كفصيل وفصال - يقال نعم الربط هذا ، لما يربط من الخيل (١) .
والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تعدوا لقتال أعدائكم ما تستطيعون
إعدادهم من وسائل القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها .
وجاء - سبحانه - بالفظ : قوة ، منكرأ ، ليشمل كل ما يتقوى به في
الحرب كأنها ما كان .

قال الجمل : وقوله : من قوة ، في محل نصب على الحال . وفي صاحبها
وجهان : أحدهما أنه الموصول . والثاني : أنه العائد عليه ، إذ التقدير
ما استطعتموه حال كونه بعض القوة . ويحوز أن تكون : من ، لبيان
الجنس ، (٢) .

وقوله : ومن رباط الخيل ، معطوف على ما قبله من حذف الخاص
على العام .

أى : أعدوا لقتال أعدائكم ، ما أمكنكم من كل ما يتقوى به عليهم
في الحرب ، من نحو : حصون وقلاع وسلاح . . ومن رباط الخيل للغزو
والجهاد في سبيل الله .

وخمس ربط الخيل بالذكر من بين ما يتقوى به ، لمزيد فضلها وخطاها في
الحرب ، ولأن الخيل كانت الأداة الرئيسية في القتال في العهد النبوي . وقوله :

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٥٣ .

« ترهبون به عدو الله وعدوكم ، بيان للمستقصود من الأمر بإعداد ما يمكنهم
إعداداه من قوة .

وقوله : « ترهبون » من الرهبة وهي مخافة مع تحرز واضطراب .
والضمير المجرور - وهو قوله « به » - يعود إلى الإعداد المأخوذ
من قوله « وأعدوا » .

أى : أعدوا ما استطعتم من قوة ، حالة كونكم مرهبين بهذا الإعداد
عدو الله وعدوكم ، من كل كافر ومشرک ومنحرف عن طريق الحق ، وعلى
رأس هؤلاء جميعا . كفار مكة الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق ،
ويهود المدينة الذين لم يتركوا وسيلة للإضرار بكم إلا فعلوه .

وقوله « وآخرين من درنهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » معطوف على ما قبله
أى : ترهبون بهذا الإعداد عدو الله وعدوكم كشركى مكة ويهود المدينة
وترهبون به أيضاً أعداء آخرين غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم .

أى : ترهبون بهذا الإعداد أعداء معروفين لكم - كشركى مكة ويهود
المدينة ، وترهبون به أيضاً أعداء آخرين غيرهم أنتم لا تعرفونهم لأنهم
يخفون هداوتهم لكم ، ولكن الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شيء يعلمهم ،
وسيجبط أعماهم .

وقد اختلف المفسرون فى المراد هؤلاء الأعداء الذين عبر الله عنهم بقوله
لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فمنهم من قال : المراد بهم بنو قريظة ومنهم من
قال : المراد بهم أهل فارس والروم .

ورجح ابن جرير أن المراد بهم : كفار الجن . . لأن المؤمنين كانوا
عالمين بعداوة بنى قريظة وفارس والروم لهم . . والمعنى ترهبون بذلك
بالإعداد عدو الله وعدوكم من بنى آدم الذين علمتم هداوتهم ، وترهبون به جنسا

آخر من غير بنى آدم لاتعلمون أما كنهم وأحوالهم ، الله يعلمهم دونكم ،
لأن بنى آدم لا يرونهم . . . (١) .

ورجح الفخر الرازى أن المراد بهم المنافقون . قال : « لأن المنافق من
هادته أن يترصد ظهور الآفات ، ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق بين
المسلمين - بطرق قد لا تعرف - ، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة
خافهم وترك الأفعال المذمومة » ، (٢) .

ولعل ما رجحه الفخر الرازى هو الأقرب إلى الصواب ، لأن عداوة
المنافقين للمؤمنين كثيراً ما تكون خافية ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - في
آية أخرى : « ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا
على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم . . . » (٣) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق في سبيله ،
وبشر المنافقين بحسن الجزاء فقال : « ما تنفقوا من شئ - في سبيل الله يوف
إياكم وأنتم لا تظلمون . . »

أى : « ما تنفقوا - أيها المؤمنون - « من شئ » ، قل أو كثر هذا المنفق
« في سبيل الله » ، أى في وجوه للخيرات التى من أجلها الجهاد لإعلاء كلمة
الدين « يوف إياكم » ، أى : يصل إياكم عوضه في الدنيا وأجره في الآخرة
« وأنتم لا تظلمون » ، أى : لا تنقصون شيئاً من العوض أو الأجر .

قالوا : « والتعبير بالظلم - مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون
رك تربيه عليها ظالماً - لبيان كمال نزاهته - سبحانه - عن ذلك بتصويره

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٢٢ طبعة مصطفى الحلبي -

الطبعة الثانية سنة ١٣٧٢ هـ ، سنة ١٩٥٤ م

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٨٦ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٠١

بصورة ما يستحيل صدوره منه — تعالى — من القبائح ، وإبرار الإثابة
في معرض الأمور الواجبة عليه — تعالى — ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتي :

١ — وجوب إعداد القوة الحربية للدفاع عن الدين وعن الوطن وعن
كل ما يجب الدفاع عنه ، لأن أعداء الإسلام إذا ما علموا أن أنبأه أقوياء
هابوهم ، وخافوا بأسهم ، ولم يجرؤوا على مهاجمتهم .

قال القرطبي : وقوله - تعالى - : « وأعدوا لهم » ، أمر الله المؤمنين بإعداد
القوة للأعداء ، بعد أن أكد تقدمه للتقوى ، فإن الله - تعالى - لو شاء هزمهم
بالكلام والتفل في وجوههم ، وبحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله
ﷺ — ، ولكن أراد أن يتلى بعض الناس ببعض بعله السابق
وقضائه النافذ ... ، (٢) .

وقال بعض العلماء : دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ،
إنقاء بأس العدو وهجومه ، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة
الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبي الضيم ، قوي القنا ، جليل
للجاء ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على
فاصية الأقطار والأمصار .

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم
والترف ، فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة
بترك هذا الفرض ، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني .

وكيف لا يطمع العدو في بلاد الإسلام ، وهي لا يرى فيها معامل
للاسلحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها بما يشترى من بلاد العدو ؟

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٥

أما أن لها أن تنبئه من غفلتها ، فتعد العدة التي أمر الله بها لأعدائها ،
موتلاف ما فرطت قبل أن يدام العدو ما بقي منها بحيلة ورجله . . . (١) .
إن القوة التي طالب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء ، تتناول
كل ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أوفياء . كإعداد الجيوش المدربة ،
والأسلحة المتنوعة التي تختلف بحسب الأزمنة والامكنة .

وما روى من تفسير القوة - التي وردت في الآية - بالرمل ، فإنما هو
على سبيل المثال ، ولأن الرمي كان في ذلك الوقت أقوى ما يتقوى به .
قال الفخر الرازي عند تفسيره للآية ، والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً
لحصول القوة ، وذكروا فيه وجوها :

الأول : المراد من القوة أنواع الأسلحة .

الثاني : روى أنه - عليه السلام - قرأ هذه الآية على المنبر وقال : دأب
إن للقوة الرمي ، قالها ثلاثاً .

الثالث : قال بعضهم : القوة هي الحصون .

الرابع : قال أصحاب الممانى : الأولى أن يقال : هذا عام في كل ما يتقوى به
على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله
- عليه السلام - : د القوة هي الرمي ، لا ينبغي كون غير الرمي معتبراً .
كما أن قوله - عليه السلام - : الحج عرفه والندم قوته ، لا ينبغي اعتبار غيره .
بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذلك هنا .

وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل ، والسلاح ، وتعليم
الفروسيه ، والرمي فريضه إلا أنه من فروض الكفايات .

٣ - أن رباط الخيل للجهاد في سبيل الله فضله عظيم ، وثوابه كبير ،

(١) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣٠٢٥

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٨٥

فقد كانت الخيل هي خير ما عرف العرب من وسائل الانتقال في الحرب وأسرعها ، وما زالت الخيل لها قيمتها في بعض أنواع الحروب .
قال القرطبي ، فإن قيل : إن قوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » كان يكفي ، فلما خص الخيل بالذكر ؟ .

قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحرب وأوزارها (١) التي عقد الخير في نواحيها ، وهي أقوى القوة ، وأشد العدة ، وحصون الفرسان ، وبها يجال في الميدان ، لما كانت كذلك خصها بالذكر تشريهاً ، وأقسم بغيرها تمكربها ، فقال : « والمعاديات ضيحا » (٢) .

وقال الإمام ابن العربي : وأما رباط الخيل فهو فضل عظيم ومنزلة شريفة .
روى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « الخيل ثلاثة ، لرجل ستر ، ولرجل أجر ، وعلى رجل وزر . فأما الذي هي عليه وزر فرجل رباطها رياء وفخرا ونواء لأهل الإسلام - أي : مناوأة ومعاداة - فهي عليه وزر .

وأما الذي هي عليه ستر فرجل رباطها تغنيا وتعفا ، ولم ينس حق الله في ظهورها فهي عليه ستر .

وأما الذي هي له أجر فرجل رباطها في سبيل الله ، فأطال لها في مرج أوردوضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب الله له حدها ما أكلت حسنات

وروى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله - ﷺ - يلوي فاصية فرس أبا صبعيه وهو يقول : « الخير معقود في نواحي الخيل إلى يوم القيامة » (٣) .

(١) أوزار الحرب : أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٧

(٣) أحكام القرآن - القسم الثاني ص ٨٦٢ لابن العربي . طبعة عيسى

الحلي . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ .

٤ — أن المقصود من إعداد العدة في الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاهتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحدا سواه — عز وجل . .

وأيض المقصود بإعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الأمنين ، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله — تعالى — . . .
ولذلك وجدنا الآية صريحة في بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو — كما عبرت عنه — ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلوهم الله يعلمهم

وهناك آيات أخرى صريحة في بيان سبب مشروعية القتال في الإسلام ومن ذلك قوله — تعالى — : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، (١) .
وقوله — تعالى — : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » ، (٢) .

والخلاصة : إن من اتبع آيات القرآن الواردة في القتال بجدها جميعها تقرر أن سبب القتال في الإسلام ينحصر في رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وثبتت حرية العقيدة ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

٥ — وجوب الإنفاق في سبيل الله ، ومن أشرف وجوه الإنفاق في سبيل الله أن يبذل المسلم ما يستطيع بذله في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام ، والذي ما تركه قوم إلا ذلوا . . . وألقوا بأنفسهم في التهلكة .
واقعد بشرت الآية الكريمة المدفعين في سبيل الله ، بأنه - سبحانه - سيجازيهم على إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .

قال - تعالى - وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفى إياكم وأنتم لا تظلمون ،
وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي عن أبي يحيى قال : قال رسول الله
ﷺ - : « من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبع مائة ضعف (١) ،
ثم أمر - تعالى - رسوله - ﷺ - بقبول السلام والمصالحة ،
إذا ما رغب أعداؤه في ذلك ، وكانت ظواهرهم وأفعالهم تدل على صدق
نواياهم فقال - تعالى - :

بافتح . وإنما قال د لها ، لأن السلم مؤنثة - تأتيك نقيضها وهي الحرب - .
ويجوز أن يكون التانيث للفعلة (١) .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تنكل في الحرب بأوائلك
للكافرين النافذين لعهودهم في كل مرة ، وأن تهيب ما استطعت من قوة
لإرهايقهم فإن مالوا بعد ذلك إلى السلم ، أي : المسالمة والمصالحة فوافقهم
ومل إليهم ما دامت المصالحة في هذه المسالمة .

وقوله : وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، معطوف على فاجتنب لها .
لقصد التثبيت وبعث الطمأنينة في قلبه .

أي : أقبل المسالمة ما دام فيها مصلحتك ، وفوض أمرك إلى الله - تعالى - .
ولا تخش مكرهم وكيدهم وغدرهم ، إنه - سبحانه - هو السميع ، لا قوا لهم .
العليم ، بأحوالهم ، فيجازيهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم في نهمهم .
وعبر - سبحانه - عن جنوحهم إلى السلم بحرف د إن ، الذي يعبر به عن
الشيء المشكوك في وقوعه ، الإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً لاختيار المسالمة
أو المصالحة لذاتها ، وإنما هم جنحوا إليها لاجتماع في نفوسهم ، فعلى المؤمنين
أن يكونوا دائماً على حذر منهم ، وألا يأمنوا مكرهم .

هذا وقد اختلف العلماء فيمن عنى بهذه الآية . فمن من يرى أن المعنى بها
أهل الكتاب ، ومنهم من يرى أن الآية عامة . أي تشمل أهل الكتاب
والمشركين . ثم اختلفوا بعد ذلك في كونها منسوخة أولاً ؟

وقد حكى ابن جرير معظم هذه الخلافات ورجح أن المقصود بهذه الآية
جماعه من أهل الكتاب ، وأن الآية ليست منسوخة فقال ما ملخصه :
د عن قتادة أن قوله : وإن جنحوا للسلم فاجتنب لها . . . منسوخة بقوله
في سورة براءة : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، (٢) . وبقوله : وقاتلوا
المشركين كافة ، (٣) .

(١) تفسير القرطبي بتصريف يصير ج ٨ ص ٣٩ .

(٢) سورة براءة ، الآية ٥ . (٣) سورة براءة ، الآية ٣٩ .

فقد كانت هذه - أى الآية التى معنا وهى قوله - تعالى - : « وإن جنحوا
للسلم ... » - قبل براءة - كان النبى - ﷺ - يوادع القوم إلى
أجل ، فإما أن يسلموا ، وإما أن يقاتلهم ، ثم نسخ ذلك بعد فى براءة فقال :
« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وعن عكرمة والحسن البصرى قالا : « وإن جنحوا للسلم ... » ، نسختها
الآية التى فى براءة وهى قوله - تعالى - : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله
ولا باليوم الآخر ... » (١) الآية .

ثم قال ابن جرير : فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن هذه الآية
منسوخة ، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل .

لأن قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ... » إنما عنى به بنو قريظة
- كما قال مجاهد - وكانوا يهودا أهل كتاب وقد أذن الله - جل ثناؤه - للمؤمنين
بصلح أهل الكتاب ، وامتاركتهم الحرب ، على أخذ الجزية منهم . وأما قوله :
« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... » ، فإما عنى به مشركو العرب من عبدة
الأوثان ، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم ، فليس فى إحدى الآيتين نفى
حكم الأخرى ، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه ... (٢) .

هذا ما يراه ابن جرير . أما ابن كثير فقد وافقه على أن الآية ليست
منسوخة ، وخالفه فى أن المقصود بها بنو قريظة ، فهو يرى أن الآية عامة
فقد قال - رحمه الله - :

قوله : « وإن جنحوا ، أى : مالوا للسلم ، أى المسالمة والمصالحة والمهادنة
« فاجنح لها ، أى : قل لإيها واقبل منهم ذلك . ولهذا لما طلب المشركون عام
الحديبية للصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر ... »

(١) سورة براءة ، التوبة ، الآية ٢٩

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٣٤ .

وقال مجاهد : نزلت في بنى قريظة ، وهذا فيه نظر ، لأن السياق كله في وقعة بدر ، وذكرها مكتنف لما كله .

وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة : إن الآية منسوخة بآية السيف في براءة ، وهي قوله - تعالى - « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين آوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وفيه نظر أيضا ، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إذا كان العدو كثيفا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة « وإن جنحوا . . . » ، وكما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية . فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص . . . (١) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن كثير أرجح ، لأن الآية الكريمة تفرد مبدأ عاما في معاملة الأعداء ، وهو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم ما دام ذلك في مصلحة المسلمين .

ولعل هذا هو ما قصده صاحب الكشف بقوله - عند تفسير الآية - : « والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم . وليس يحتم أن يقاتلوا أبدا . أو يجابوا إلى الهدنة أبدا » (٢) . ثم أمن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - من خداع أعدائه ، لأنهم أرادوا خيائته ، وبيتوا له الغدر من وراء الجنوح إلى السلم فقال - تعالى - : « وإن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله هو الذي أهدى لك بنصرته وهدى المؤمنين » . أي : وإن يرد هؤلاء الأعداء الذين جنحوا إلى السلم في الظاهر أن يخدعوك

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٣٣ .

- يا محمد - لتكف عنهم حتى يستعدوا لمقاتلتك فلا تقبال بخداهم، بل صالحهم مع ذلك إذا كان في الصلح مصلحة للإسلام وأهله، ولا تخف منهم، فإن الله كافيك بنصره ومعاونته، فهو - سبحانه - الذي أمرك بما أمرك به من وسائل النصر الظاهرة والخافية، وهو - سبحانه - الذي أيدك بالمؤمنين الذين هانت عليهم أنفسهم وأموالهم في سبيل إعزاز هذا الدين، وإعلاء كلمته . . .

قلاية الكريمة تشجيع للنبي - صلى الله عليه وسلم - على السير في طريق الصلح ما دام فيه مصلحة للإسلام وأهله، وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء بإظهار الميل إلى السلم المخادعة والمراوغة. وقوله: « حسب، صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل. أى. بحسبك وكافيك.

قال الفخر الرازى: فإن قيل: أليس قد قال - تعالى - « وإما تخافن من قوم خيانة فأنذرهم » . . . أى: أظهر نقض ذلك العهد، وهذا يناقض ما ذكره في هذه الآية؟

قلنا: قوله: « وإما تخافن من قوم خيانة، محمول على ما إذا كنا كذلك بالخوف بأمارات قوية دالة عليها وتحمل هذه المخادعة على ما إذا حصل في قلوبهم نوع نفاق وتزوير، إلا أنه لم تظهر أمارات تدل على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة، بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسالمة وترك المنازعة . . . فإن قيل: كما قال: « هو الذي أيدك بنصره، فأى حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال: « وبا المؤمنين؟

قلنا: التأيد ليس إلا من الله لكنه هل قسمين: أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة والثاني ما يحصل بواسطة أسباب معلومة . فالأول هو المراد من قوله: « أيدك بنصره، والثاني هو المراد من

قوله: « وبا المؤمنين، (١).

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٨٨ .

(١٣٢ - سورة الأنفال)

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله في كيفية تأييده لرسوله بالمؤمنين فقال - تعالى - : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

أى : أن من مظاهر فضل الله عليك يا محمد أن أيدك - سبحانه - بنصره وأن أيدك بالمؤمنين ، بأن حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وجعل منهم قوة موحدة ، فصاروا بفضل - تعالى - كالنفس الواحدة ، بعد أن كانوا متنازعين متفرقين وأنت يا محمد لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ، من الذهب والفضة وغيرهما ، ما استطعت أن تؤلف بين قلوبهم المتنازعة المتنازعة . ولكن الله ، بفضل وقدرته هو وحده الذي ألف بينهم ، فصاروا إخواناً متحابين متصافين ، إنه ، - سبحانه - عزيز ، أى : غالب في ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن ، حكيم ، فى كل أفعاله وأحكامه ..

وهذه الآية الكريمة تؤيدها التاريخ ، ويشهد بصدقها أحداثه ، فنحن نعلم أن العرب - وخصوصاً الأوس والخزرج - كانوا قبل الإسلام فى حالة شديدة من التفرق والتخاصم والتنازع والتحارب ... فلما دخلوا فى الإسلام تحول بغضهم إلى حب ، وتخاصمهم إلى مودة ، وتفرقهم إلى اتحاد ... وصاروا فى توأدهم وتراحمهم وتعاطفهم ، إلى مستوى لم يعرفه التاريخ من قبل ... ولقد أجاد صاحب الكشف - رحمه الله - فى تصويره لهذه المعانى حيث قال : « النأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الآيات الباهرة ، لأن العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة .. - لا يكاد يأنلف منهم قلبان ، ثم أنفقت قلوبهم على اتباع رسول الله - ﷺ - واتحدوا ، وأنشأوا يرمون من قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من الفتنهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط عنهم من التباغض والتباغضات ، وكلفهم من الحب ، فى الله والبغض فى الله . ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كيف يشاء ، ويصنع فيها يريد . »

قبل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك
صادتهم ورؤسائهم ، ودق جباههم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما
التجاوز الذى يهيج الضغائن ، وينسيم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين
كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها ، وتكرهه وتنفر منه .

فأنساهم الله - تعالى - ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا
أنصاراً ، وعادوا أحوالاً ، وما ذاك إلا بلطف صنعه ، وبلغ قدرته ، (١) .
هذا ، وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خطب الأنصار
في شأن فنائهم ، حزين ، قال لهم : يا معشر الأنصار ! ألم أجِدكم ضلّالاً فهداكم
الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي ؟ فكانوا
يقولون كلما قال شيئاً : الله ورسوله أمن ، (٢) .

وروى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة
لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزعزحها شيء . ثم يقرأ قوله - تعالى - :
« لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ، ما ألفت بين قلوبهم ولا يكن الله ألف
بينهم » ، (٣) .

ثم مضت السورة الكريمة فى تثبيت العائلية فى قلب النبي - ﷺ -
وفى قلوب أصحابه ، فبينت لهم أن الله كافهم وناصرهم ، وأن الفلة منهم
تغلب الكثرة من أعداء الله وأعدائهم فقال - تعالى - :

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٠٠ من كتاب المغازى ، طبعة مصطفى

الحلبى سنة ١٩٤٥ وصحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٨ من كتاب الزكاة ، .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٣ .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ
 إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ
 خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ
 يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما وعده بالنصر عند غزاة
 الأعداء ، وعده بالنصر والظفر في هذه الآية مطلقاً على جميع التقديرات ،
 وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار ؛ لأن المعنى في الآية الأولى :
 إن أرادوا خداعك فكافك الله أمرهم .

والمعنى في هذه الآية عام في كل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا .
 وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال . . . (١) .
 وقوله : « حسب » صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل . والكافر في محل جر
 والوار في قوله « ومن اتبعك » بمعنى مع ، و « من » في محل نصب
 عطفاً على الموضع ، فإن قوله « حسبك » بمعنى كافيك في جميع أمورك .
 والمعنى : يا أيها النبي كافيك الله وكافي متبعيك من المؤمنين فهو - سبحانه -
 فاصركم ومؤيدكم على أعدائكم وإن كثر عدوكم وقل عددكم ، وما دام الأمر
 كذلك ، فاعتمدوا عليه وحده ، وأطيعوه في السر والعلن ؛ لكي يديم عليكم
 عونه وتأييده ونصره .

قال بعض العلماء : قال ابن القيم عند تفسيره لهذه الآية : أي : الله وحده

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٩١ . طبعه عبد الرحمن محمد .

كافيك وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وهما تقريران : أحدهما : أن تكون الواو عاطفة للفظ « من » ، على الكاف المجروزة . . . والثانى : أن تكون الواو بمعنى « مع » ، وتكون « من » ، فى محل نصب عطفا على الموضع ، فإن « حسبك » ، فى معنى كافيك أى : الله يكفيك ويكفى من أتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيدا درهم ، قال الشاعر :

وإذا كانت الهجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

وهذا أصح التقريرين . وفيها تقدير ثالث : أن تكون « من » فى موضع رفع بالابتداء : أى ومن أتبعك من المؤمنين فحسبهم الله

وفيها تقدير رابع وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون « من » فى موضع رفع عطفا على اسم الله . ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك .

هذا وإن قال به بعض الناس فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . . . (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بتحريض المؤمنين على القتال من أجل إعلاء كلمة الحق ، فقال - تعالى - : يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال

وقوله : « حرض » من التحريض بمعنى الحث على الشئ . بكثرة التزيين له ، وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماوس .

قال الراغب : الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ، ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك حرض . قال - تعالى - : حتى تكون حرضا أو من الهالكين . . . والتحريض : الحث على الشئ . . . فكأنه فى الأصل إزالة الحرض نحو

حرضته وقذيته أى : أزلت عنه الحرض والقذى . . . (٢) .

ولمعنى : يا أيها النبى بالغ فى حث المؤمنين وإحسانهم على القتال بصبر وجلد ، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل .

ولهذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحرض أصحابه على القتال

(١) تفسير القاسمى ج ٨ ص ٣٠٣

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ١١٣

هند صنفهم ومواجهة الأعداء كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المهر كون في هدم وهدم : د قوموا إلى الجنة عرضاً السموات والأرض ، . فقال عمير بن الحام : عرضاً السموات والأرض ؟ فقال رسول الله : نعم . فقال عمير : بنح بنح ، فقال - ﷺ - : د ما يملكك على قولك بنح بنح ، قال : رجاء أن أكون من أهلها . قال - ﷺ - : د فإنك من أهلها ، فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج نمرات فجعل يأكل فنهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : إني أنا حديد حتى آكلهن ، إنها الحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل - رضى الله عنه - (١) .

وقوله : د إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، بشاره من الله - تعالى - للمؤمنين ، ووعد لهم بالظفر على أهدائهم .

أى : قابلوها - أيها المؤمنون أعداءكم بقوة وإقدام ، فإنكم إن يوجد منكم عشرون رجلاً صابرون يغلبوا - بسبب إيمانهم وصبرهم - مائتين من الكافرين ، وإن يوجد منكم مائة يغلبوا ألفاً منهم ، وذلك بسبب أن هؤلاء الكافرين قوم جهلة بحقوق الله - تعالى - وبما يجب عليهم نحوه .

فهم - كما يقول صاحب الكشف - : د يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهاائم ، فيقل ثباتهم . ويعدمون أجملهم بالله نصرته ، ويستحقون الخذلان . بخلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله - تعالى - ، (٢) .

وقال صاحب المنار : والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وإرتقاء الأمم . وأن حرمان الكفار من هذا العلم هو السبب في كون المائة منهم دون البشرية من المؤمنين الصابرين . . .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٤

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٣٥

سوهكذا كان المؤمنون في قرونهم الأولى . . أما الآن فقد أصبح المسلمون خافلين عن هذه المعاني الجليلة ، فزال مجدهم . . (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله على المؤمنين ورحمته بهم فقال : « الآن خفف الله عنكم وهلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . . . » وقوله « ضعفاً » قرأه بعضهم بفتح الضاد ، وقرأه آخرون بضمها ، وهما بمعنى واحد عند الجمهور ، والمراد به الضعف في البدن .

وقيل الضعف - بالفتح - يكون في الرأي والعقل ، وبالأضعف يكون في البدن والمعنى : لقد فرضنا عليكم - أيها المؤمنون - أول الأمر أن يثبت الواحد منكم أمام عشرة من الكافرين والآن وبعد أن شق عليكم الاستمرار على ذلك ، ولم تبق هناك ضرورة لدوام هذا الحكم لكم لكثرة هددكم . . . شرعنا لكم التخفيف رحمة بكم ، ورعاية لأحوالكم ، فأوجبنا عليكم أن يثبت الواحد منكم أمام اثنين من أعدائكم بدلاً من عشرة ، وبشرناكم بأنه إن يوجد منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من أعدائكم ، وإن يوجد منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله وتيسيره وتأيده .

وقوله : « والله مع الصابرين » ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - مع الصابرين بتأييده ورعايته ونصره ، فاحرصوا على أن تكونوا من المؤمنين الصادقين لتنالوا منه - سبحانه - ما يسعدكم في دنياكم وآخرتكم . هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت الآية السابقة عليها ، ومنهم من يرى غير ذلك .

قال الألوسي : قوله : « إن يكن منكم عشرون . . » شرط في معنى الأمر

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ٨٩ بتصرف وتلخيص .

بمصارعة الواحد العشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا - بعون الله وتأييده - قاطبة خبريه لفظاً لإنشائية معنى .

والمعنى : ليصبرن الواحد لعشرة ؛ وليست بغير محض ...

وقوله : : الآن خفف الله عنكم . . . أخرج البخارى وغيره عن

ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت إن يكن منكم عشرون ...

شق ذلك على المسلمين إذ فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف

وهل يعد ذلك نسخاً أولاً ؟ قولان : اختار بعضهم الثانى منهما وقال : إن

الآية مخففة ، ونظم ذلك للتخفيف على المسافر بالفطر .

وذهب الجمهور إلى الأول ، وقالوا : إن الآية الثانية ناسخة الأولى (١) .

وقال بعض العلماء : فرض الله على المؤمنين أول الأمر ألا يفر الواحد

من المؤمنين من العشرة من الكفار ، وكان ذلك في وسعهم ، فأمر الله بهم

الدين على قلتهم ، وخذل بأيديهم المشركين على كثرتهم ، وكانت السرايا

تزم من المشركين أكثر من عشر أمثالها تأييداً من الله لدينه .

ولما شق على المؤمنين الاستمرار على ذلك ، وضعفوا عن تحمله ، ولم

تبق ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عدد المسلمين من دخلوا في دين الله

أفواجا نزل التخفيف ، ففرض على الواحد الثبات لل اثنين من الكفار ،

ورخص له في الفرار إذا كان العدو أكثر من اثنين .

وهو - كما اختاره مكى - رخصة كالفطر للمسافر ، وذهب الجمهور إلى

أنه نسخ (٢) .

وقال الشيخ القاسمى : إن قيل : إن كفاية عشرين لما اثنين تغنى عن كفاية

مائة لآلف ، وكفاية مائة لما اثنين تغنى عن كفاية ألف لآلفين ، لما تقر من

وجوب ثبات الواحد للعشرة في الأولى ، وثبات الواحد لل اثنين في الثانية

فاسر هذا التكرير ؟

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ٣١ بتصرف وتلخيص .

(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٣٠٧ فضيلة الأمام الشايخ حسين محمد مخلوف .

أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل على الكثير لزيادة التفرير
المفيد لزيادة الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة
لا تتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين ، وتغلب المائة الآلاف ، وأما
الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي .

وقيل في سر ذلك : إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيأوز
عددها العشرات والمئات إلى الألوف .

ثم قال : وقال في البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت في
الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد
كفرهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد المطلوبين
أثبت في جملة التخفيف وحذف من الثانية الدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت
بقوله : « والله مع الصابرين » ، مبالغة في شدة المطلوبة ، وإشارة إلى تأييدهم
وأنهم منصورون حتما ، لأن من كان الله معه لا يغلب ... (١) .

وبعد هذا الحديث المستفيض عن القتال في سبيل الله .. عقب - سبحانه -
ذلك بالحديث عن بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرى بمناسبة ما فعله
الرسول - ﷺ - مع أسرى غزوة بدر من الكافرين ، فقال - تعالى -

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى
يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب : أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله - ﷺ - إلى المشركين وهم ألف ، وأصحا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف برؤسهم اللهم أنجز لي ما وعدتني .

فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله - ﷺ - لآبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو النعم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فغضب أن يهديهم إلى الإسلام .

فقال رسول الله - ﷺ - ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكثهم فنضرب أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، - حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهو رسول الله - ﷺ - ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تبأ كيت لبكائكما .

فقال رسول الله - ﷺ - : أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذائهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - ﷺ -

حوازل الله - عز وجل - : ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى يتنخس
في الأرض . . . ، إلخ الآيات (١) .

وروى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم
بدر قال رسول الله - ﷺ - : ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو
بكر : يا رسول الله ! قومك وأهلك استبقهم واستبقهم ! فقال أن يتوب عليهم .
وقال عمر : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .
وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت في واد كثير الخطب
فأضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه .

قال : فسكت رسول الله - ﷺ - فلم يرد شيئاً . ثم قام فدخل فقال ناس :
ياخذ بقول أبي بكر . وقال ناس : ياخذ بقول عمر . وقال ناس : ياخذ بقول
ابن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى
تكون ألين من اللين ؛ ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة
وإن مثلك يا أبى بكر كمثل إبراهيم إذ قال : فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى
فإنك غفور رحيم ، (٢) . وكمثل عيسى إذ قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك
وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، (٣) .

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : رب لا تذر على الأرض من
الكافرين دياراً ، (٤) ، وكمثل موسى إذ قال : ربنا اطمس على أموالهم
واشددهم على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، (٥) .
ثم قال - ﷺ - : أنتم هؤلاء فلا يغفلن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق .

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٥٦ من كتاب الجهاد والسير ط مطبعتى الحلبي سنة ١٩٦٠

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٦ (٣) سورة المائدة ١٢١

(٤) سورة (٤) سورة (٤) ٨٨

قال ابن مسعود : فقلت يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : إلا سهيل بن بيضاء ، وأنزل الله - عز وجل - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . . . إلى آخر الآية (١) .

وقال ابن إسحاق - وهو يحكى أخبار غزوة بدر - : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله - ص - في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ص - متوحشاً بالسيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون عليه الكفرة . ورأى رسول الله - فيما ذكر لى - فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال رسول الله - ص - ، والله لكانه يا سعد تكبره ما يصنع القوم ، فقال : أجل والله يا رسول الله ، كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثنان فى القتل أحب إلى من استيفاء الرجال (٢) .

قوله : أسرى ، : جمع أسير كقتلى جمع قتيل ، وهو مأخوذ من الأسر بمعنى الشد بالإسار أى : القيد الذى يقيد به حتى لا يهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق على كل من يؤخذ من فتنه فى الحرب ولو لم يشد بالإسار .

وقوله : يثخن ، من الثخانة وهى فى الأصل الغلظ والصلابة . يقال : ثخن الشيء يثخن ثخونة وثخانة وثخناً ، أى : غلظ وصلب فهو ثخين ، ثم استعمل فى النكاية والمباغلة فى قتل العدو ف قيل : أثخن فلان فى عدوه . أى : بالغ فى قتله وإنزال الجراحة الشديدة به ، لأنه بذلك يمنع من الحركة فيصير كالثخين الذى لا يسيل ولا يتحرك .

والمراد بالنبي فى قوله ما كان لنبي ، : نبيينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإنما جىء باللفظ منكراً لطفاً به - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يواجه بالعتاب .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٥

(٢) الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام ج ٥ ص ١٠٦

والمعنى : ما صح وما استقام لنبي من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أن يكون له أمرى ، من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرأ ، حتى يشحن في الأرض ، أى : حتى يبالغ في قتلهم ، وإنزاله الضربات الشديدة عليهم لإذلالا للكفر وإعزاز لدين الله .

وقوله : د تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، استثناف مسوق لظعناب .

والعرض : ما لإثبات له ولا دوام من الأشياء ، فكانها تعرض ثم عزول ، والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا سراحهم .

أى : تريدون - أيها المؤمنون - بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لإثبات له ، والله - تعالى - يريد لكم ثواب الآخرة .

قال - كلام فى قوله : د والله يريد الآخرة ، على حذف المضاف وإقامه المضاف إليه مقامه والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : والله - تعالى - يرضو لكم العمل الذى يجعلكم تظفرون بثوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل لإذلال المشرك على أخذ الفداء من أهله .

وقوله : د والله عزيز حكيم ، أى : والله - تعالى - عزيز ، لا يغالب بل هو الغالب على أمره د حكيم ، فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين ، لأنهم أثروا الفداء على القتل والإثخار فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين المشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين أثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم من طريق القتل لكان ذلك أدعى لكسر شوكة المشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائهما ، وأصرح فى بيان أن العمل

على إعلاء كلمة الله كان هذا المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها، وأنهم لا يوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته ، وهذا ما عبر عنه عمر - رضى الله عنه - بقوله : « وحتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، والخلاصة أن غزوة بدر — بطروفها وملابسائها التي سبق أن أشرنا إليها — كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا في قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلّوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة .

ورضى الله — تعالى — عن سعد بن معاذ ، فقد ظهرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وقال — كما سبق أن بينا — : « . كانت غزوة بدر — أول وقعة أوقفها الله بأهل المعرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استيقاء الرجال .

قال الفخر الرازى : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا قلوباين ، فلما كثروا وقوى سلطانهم أنزل الله بعد ذلك في الأسارى ، حتى إذا أنخننهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، (١) .

ثم قال الرازى : وأقول : إن هذا الكلام يومهم أن قوله « فإما منا بعد وإما فداء » يريد على حكم الآية التي نحن في تفسيرها : وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كليهما تدل على أنه لا بد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء ، (٢) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

(١) سورة محمد — عليه السلام — الآية هـ

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٣ ص ٢٠٢

والمراد بالكتاب هنا : الحكم ، وأطلق عليه كتاب لأن هذا الحكم مكتوب في اللوح المحفوظ .

والمفسرين أقوال في تفسير هذا الحكم السابق في علم الله - تعالى - :
فمنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب المخطيء في اجتماعه .
وقد صدر صاحب الكشف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأي فقال : قوله :
«لولا كتاب من الله سبق» . أى : لولا حكم منه سبق لإثباته في اللوح
المحفوظ ، وهو أنه - سبحانه - لا يعاقب أحداً بخطأ ، وكان هذا خطأ
في الاجتماع . لأنهم نظروا في أن استيفاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم
وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله ، وخفى عليهم أن
قتلهم أعز الإسلام وأهيب لمن وراءهم ، وأقل لشوكتهم . . . (١) .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم
النهي عن الفعل ولم يتقدم نهى عن أخذ الفداء .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذبهم ما دام
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهم .

أو أنه - سبحانه - لا يعذب أحداً عن شهيد بدرا .

وقد ساق الإمام الرازى هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن المراد
بالكتاب الذى سبق : هو حكمه - سبحانه - فى الأزل بالعفو عن هذه
الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

أما الإمام ابن جرير فهو يرى أن الآية خبر عام محصور على معنى دون
معنى ، وأنه لا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى . . . فقال : يقول
الله - تعالى - «لاهل بدر الذين أخذوا من الأسرى الفداء» لولا كتاب
من الله سبق . . .

أى : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله يحل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى ينبتن لهم ما يتقون ، وأنه لا يعذب أحداً شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر . . . لولا كل ذلك لنا لكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم ، (١) .

ويبدولنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعاني - أولى بالقبول ، لأنه لم يوجد نص صحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - يحدد تفسير المراد من هذا الكتاب السابق فى علمه - تعالى - . ولعل الحكمة فى هذا الإيهام لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، وبديل عليه المقام ، ولكى يعرفوا أن أخذهم الفداء كان ذنباً يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله - تعالى - قدر فى الأزل العفو عنهم بسبب وجود النبى - ﷺ - فيهم ، ولأنهم قد أخطأوا فى اجتماعهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهي عن ذلك ، ولأنهم قد شهدوا هذه الغزوة التى قال الرسول فى شأن من حضرها على لسان ربه - عز وجل - : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» . فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لعمر فى قصة حاطب بن أبى بلتعة عند ما أخبر المشركين بأن الرسول سيفتزوهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدرأ - : «وما يدريك لعل الله - تعالى - اطلع على أهل بدر وقال : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ، (٢) .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : «لولا كتاب من الله سبق ، أى : لولا حكم من الله - تعالى - سبق منه فى الأزل ، ألا يعذب المخطئ» . على اجتهداه أو ألا يعذب قوما قبل تقديم البيان إليهم . . . لولا كل ذلك «لمسكم ، أى لأصابتكم» فيما أخذتم ، أى بسبب ما أخذتم من الفداء قيل أن تؤمروا به «عذاب عظيم ، لا يقادر قدره فى شدته وألمه» .

قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه وقال : يا رسول الله ما لنا والغنائم ؟ نحن قوم نجاهد في دين الله حتى يمجد الله فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجأ غيرك . . . وقال ابن اسحاق : لما نزلت ولولا كتاب من الله سبق . . . الآية . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يا نبي الله ، كان الإثخان في القتل أحب إلى من استيفاء الرجال ، (١) .

وقال بعض العلماء : قال القاضي ، وفي الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لا يقرون عليه (٢) ثم زاد - سبحانه - المؤمنين فضلاً ومنه فقال : فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ، والله إن الله غفور رحيم . . .

قال الألوسي . . . أي أنه لما كانت الآية الأولى وما كان لنبي أن يكون له أسرى . . . كف الصحابة أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت هذه الآية . فالمراد بقوله وما غنمتم ، إما الفدية وإما مطلق الغنائم ، والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية ، وإلا فحل الغنيمة بما عداها فلم سابقاً من قوله : واعلموا أنما غنمتم . . .

وقال المراد بقوله والغنائم ، من غير اندراج الفدية فيها ، لأن القوم لما نزلت الآية الأولى امتنعوا عن الأكل والتصرف فيها ثم هذا منهم ، لا غنائم حرمتها . والفداء للمطاف على سبب مقدار ، أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ، (٣)

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٤٨

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣٩٣٩

(٣) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٣٦ (م ١٤ - سورة الأنفال)

والمعنى : لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون - فبارقتم فيه من تفضيلكم
أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأبحت لكم الانتفاع بالغنائم فكلوا مما
غنمتم من أعدائكم حلالاً طيباً ، أي لذياً هنيئاً لا شبهة في أكله ولا ضرب
دواقر الله ، في كل أحوالكم بأن نخشوه ونراقبوه لأن الله غفور رحيم ،
وإذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح لكم ما أخذتموه من فداء ، فسبحانه من
إله واسع الرحمة والمغفرة لمن اتقاه وتاب إليه توبة صادقة
وقوله : حلالاً ، حال من دماء الموصولة في قوله : دماء غنمتم ، أو صفوة
لمصدر عفوت ، أي : أكل حلالاً .

ووصف هذا المأمور بأكله بأنه حلال طيب ، تأكيداً للإباحة حتى
يقبلوا على الأكل منه بدون تخرج أو تردد ، فإن ما اتفقهم على أخذ الفداء
قبل ذلك جعلتهم يترددون في الانتفاع به وبما غنموه من أعدائهم .
ثم أمرت السورة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الأسرى بأنهم
إذا ما فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، فإنه - سبحانه - سيعوضهم عما
فقدوه خيراً منه ، أما إذا استمروا في كفرهم وعنادهم فإن الدائرة ستدور عليهم ،
استمع إلى السورة الكريمة وهي تصور هذا المعنى بأسلوبها البليغ فتقول :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى
إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ
مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قال ابن كثير : عن الزهري عن جماعة صحابه قالوا : بعثت قريش إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - في فداء أسراهم ، فقضى كل قوم أسيرهم بما رضوا .
وقال العباس : يا رسول الله ! قد كنت معلماً فقال رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - : د الله أعلم يا علامك ، فإن لم يكن كما نقول ، فإن الله يجزيك .
وأما ظنهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث ، وعقيل
ابن أبي طالب ، وحليفك عقبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر .
قال العباس : ما ذاك هندى يا رسول الله ، فقال له رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : فلين المثل الذى دفتته أنت وأم الفضل ، فقالت لها : إن أصبت
فى سيفرى هذا فمزيل المال الذى دفتته لبني : الفضل وعبد الله وقثم ، ؟

قال : والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا الشئ ما علمه
أحد غيرى وغير أم الفضل ، فأحب لى يا رسول الله ما أصبتم منى : -
عشرين أو قية من مال كان معى . -

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا ، ذاك شئ أعطانا
الله منك . .

فندى نفسه وابني أخويه وحليفه . فأنزل الله - تعالى - فيه د : يا
النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى . . . الآية .
قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبدا
كلهم فى يده مال يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله - تعالى - .
وفى صحيح البخارى عن أنس : أن رجلا من الأنصار قالوا : يا رسول الله
عما اتفقنا لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداءه .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : ولا والله ! لا تذكرون منه درهما . .
هذا ، والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت فى العباس إلا إنها عامه فى جميع
الأسرى ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولأن الخطاب فيها
موجه إلى سائر الأسرى لا إلى فرد منهم دون آخر .
والمعنى : د يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم ، أى : قل للذين تحت تصرف
أيديكم د من الأسرى ، أى : من أسرى المشركين فى بدر الذين أخذتم منهم
الفداء لتطلقوا سراحتهم .

قل لهم — أيها النبي الكريم — : « إن يعلم الله في قلوبكم خيراً ، أي :
إيماناً وتصديقاً وحرماً على اتباع الحق ونبد الكفر والعناد . . . إن يعلم الله —
— تعالى — منكم ذلك » يؤتسكم خيراً مما أخذ منكم » من فداء ، فإن
يخلفه عليكم في الدنيا ، ويمنحكم الثواب الجزيل في الآخرة .

ولقد صدق الله — تعالى — وعده مع من آمن وعمل صالحاً من هؤلاء
الأمري ، فأعطاهم الكثير من نعمه كما قال العباس — رضى الله عنه —
وقوله : « ويغفر لكم ، زيادة في حضم على الدخول في الإيمان .
وقوله : « والله غفور رحيم ، تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الوعد
بالخير والمغفرة .

أي : والله — تعالى — واسع المغفرة ، والرحمة لمن استجاب للحق .
وقدم العمل الصالح .

والنصير ، بقوله : « لمن في أيديكم ، الإيثار بأن هؤلاء الأمري
المشركين قد صاروا في قبضة المؤمنين ونحت تصرفهم ، حتى لكان أيديهم
قابضة عليهم .

وأسند وجود الخير في قلوبهم إلى علم الله — تعالى — بالإشارة إلى
أن إدعاء الإيمان باللسان فقط لا يكفل لهم الحصول على الخير الذي قدوم
ولا يوصلهم إلى مغفرة الله — تعالى — فعليهم أن يخلصوا الله في إيمانهم حتى
يتألوا فضله وثوابه ، فهو — سبحانه — عالم بذات الصدور .

وقوله : « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم » .
إنذار لهم بسوء المصير إذا ما لجؤا في عنادهم وغدرهم ، وبشارة من الله
— تعالى — لرسوله والمؤمنين بأن العاقبة ستكون لهم .

أي : وإن يرد هؤلاء الأمري ففض هووهم معك — يا محمد —
والاستمرار في محاربتك ومعادتك . . فلا تنهم بهم ، ولا تجزع من خيانتهم .

منهم قد خانوا الله - تعالى - من قبل هذه الغزوة بكفرهم وجحودهم لنعمه - فكانت نتيجة ذلك أن أمكنك منهم ، وأظفرك بهم ، وسينصرك عليهم بعد ذلك كما نصرك عليهم في بدر ، والله - تعالى - عليم بما يسرونه وما يعلنونه ، حكيم في تدبيره وصنعه .

قَالَ لَهُ الْكَرِيمَةُ إِذَا رَأَى الْأَسْرَى إِذَا مَا اسْتَجَبُوا لِعَمِي عَلَى الْهُدَى ، وَتَبَشِيرُ الرُّسُولِ - ﷺ - بِأَنْ خِيَانَتُهُمْ سَيَكُونُ وَبِأَلْهَا عَلَيْهِمْ .
قال للفخر الرازي : وقوله فأمكن منهم ، قال الأزهري : يقال أمكنني الأمر بمكنى فهو ممكن ومفعول الإمكان عذرف .

والمعنى : فأمكن المؤمنين منهم ، أى : أنهم خافوا الله بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر . فأمكن الله منهم قتلا وأسرا ، وذلك نهاية الإمكان والظفر . فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثم ، فإن عادوا كان التمكين منهم ثابتاً حاصلاً ، وفيه بشارة للرسول - ﷺ - أنه يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي تحدثت عن أسرى غزوة بدر ما يأتي :
١ - أن على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يجاهدوا جهادهم خاصاً لوجه الله ومن أجل إعلاء كلمته ونصرة دينه ، وذلك بأن يبالغوا في قتال أعدائه وأعدائهم إذلالاً للكفر وإعزازاً للحق ، وأن يؤثروا كل ذلك على أهراض الدنيا ومتعها .

٢ - أن أخذ الفداء من الأسرى لا شيء فيه في ذاته ، وإنما عاتب الله المؤمنين على أخذه من أسرى بدر ، لأن هذه الغزوة كانت المعركة الأولى بين المؤمنين والمشركين ، وكان إذلال المشركين فيها عن طريق المبالغة في قتلهم أهم من أخذ الفداء منهم ، وأظهر في كسر شوكتهم ، وعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين .

(١) تفسير للفخر الرازي ج ١٥ ص ٢٠٦ (م - ١٥ الأنفال)

قال ابن كثير . وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام غير فيهم ، إن شاء الله قتل ؛ كما فعل ببنى قريظة ، وإن شاء قادي بمال كما فعل بأسرى بدر وبمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله - ﷺ - في تلك الجارية وإبنتها اللذين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسرى .

هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفته ، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه ، (١) .

٣ — أن الذين شهدوا بدرأ من المسلمين كانت لهم مكانتهم السامية ، ومنزلتهم العالية ، عند الله — تعالى —

ومما يدل على ذلك أنه — سبحانه — عفا عن خطيئتهم في أخذ الفداء من الأسرى ثم زادهم فضلاً ومنة فجعل غنائم الحرب حلالاً لهم ، بعد أن كانت محرمة على إتباع الرسل السابقين .

ففي البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - — « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي . نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمي أدر كتبه الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ، (٢) .

٤ — أن الإسلام لا يسبق في الأسرى لديه الإذلال والقهر والاستغلال ، وإنما يسبقهم ليؤلف في فطرتهم نور الحق الذي باتباعه يعوضهم الله عما أخذ منهم في الدنيا ، ويمنحهم ثوابه ومغفرته في الآخرة .
أما إذا استمروا في عداوتهم للحق ، فإن الدائرة ستدور عليهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) صحيح البخاري ، باب التيمم ، ج ١ ص ٩١

• - أن الإيمان لا يكون صحيحاً إلا إذا صاحبه التصديق والإذعان .

قال ابن العربي : لما أسر من أسرى من المشركين في بدر ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يعضوا فيه هزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً ، وبهذه أنهم أرادوا أن يتقربوا من المسلمين ولا يبعدوا عن المشركين فنزلات الآية :
 « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى . . . الآية .

قال هلمأنا : إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يعض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر المرء . على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها .

وقد بين الله أرسوله - صلى الله عليه وسلم - الحقيقة فقال : « وإن يريدوا خيانتك ، أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرآ ، فقد خانوا الله من قبل ، بكفرهم ومكرهم بك وقاتلهم لك فامكنك منهم . وإن كان هذا القول منهم خيراً ويعلمه الله فيقبل ذلك منهم ، ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم ، (١) .

ثم ختم الله - تعالى - سورة الأنفال بالحديث عن علاقة المسلمين بعضهم ببعض ، وعن علاقتهم بغيرهم من الكفار وعن الأحكام المنظمة لهذه العلاقات

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ٧٨٤ طبعة عيسى الحلبى
 الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ م .

انفال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَجْرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا
 سُرُوءًا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا
 كُمْ مِنْ وَلَدَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
 بِنِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا
 نَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 جَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ
 وَهَاجِرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
 مِنْهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

هذه الآيات الكريمة التي ختم الله - تعالى - بها سورة الأنفال ، وضحت

المؤمنين في العهد النبوي أقسام ، وذكرت حكم كل قسم منهم .

أما القسم الأول : فهم المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى .

وأما القسم الثاني : فهم الأنصار من أهل المدينة .

والقسم الثالث : المؤمنون الذين لم يهاجروا .

والقسم الرابع : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

وقد عبّر - سبحانه - عن القسمين : الأول والثاني بقوله : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا » .

أى : « إن الذين آمنوا ، بالله - تعالى - حق الإيمان ، وهاجروا ، بأن تركوا ديارهم وأوطانهم وكل نفيس من زينة الحياة الدنيا . من أجل الفرار بدينهم من فتنة المشركين ، ومن أجل نشر دين الله في الأرض وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أى : أنهم مع إيمانهم الصادق ، وسبقهم بالهجرة إرضاء لله - تعالى - ، قد بالغوا في إتباع أنفسهم من أجل نصرة الحق . فقدموا ما يمكن من أهوال ، وقدموا نفوسهم رخيصة لافى سبيل عرض من أعراض الدنيا ، وإنما في سبيل مرضاة الله ونصرة دينه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا القسم الأول من المؤمنين وهم الذين سبقوا إلى الهجرة . . بأعظم الصفات وأكرمها .

فقد وصفهم بالإيمان الصادق ، وبالمهاجرة فراراً بدينهم من الفتن ، وبالمجاهدة بالمال والنفوس في سبيل إبداء كلمة الله .

وقد جاءت هذه الأوصاف الجميلة مرتبة حسب اللووع ، فإن أول ما حصل منهم هو الإيمان . ثم جاءت من بعده الهجرة ، ثم الجهاد .

ولعل تقديم المجاهدة بالأهوال هنا على المجاهدة بالأنفس ، لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً ، وأنهم دفعوا للحاجة ، حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالأموال .

وقوله في سبيل الله ، متعلق بقوله وجاهدوا ، لإبراز أن جهادهم لم يكن لأى فرض دنيوى ، وإنما كان من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمته - سبحانه - .

وقوله : « والذين آووا ونصروا » بيان للقسم الثاني من أقسام المؤمنين ، العهد النبوي ، وهم الأنصار من أهل المدينة الذين فتحوا للمهاجرين بهم ، واستقبلوهم أحسن استقبال ، حيث أسكنوهم منازلهم ، وبذلوا لهم أموالهم ، وآثروا هم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم .

فآية المكرمة قد وصفت الأنصار بوصفين كريمين .

أولهما : الإيواء الذي يتضمن معنى التامين من الحواف ، إذا ماوى والملاجئ والمأمن مما يخشى منه ، ومن ذلك قوله — تعالى — « إذ أوى نبيه إلى الكهف . . . (١) » ، وقوله — تعالى — « ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه . . . (١) » .

ولقد كانت المدينة مأوى وملاجئ للمهاجرين ، وكان أهلها مثالا للكرم الإيثاري . . .

ثانيهما : النصرة ، لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول — ﷺ — المهاجرين بكل ما يمكن من وسائل التأييد والموازنة ، فقد كانوا من أنزلهم ، وعادوا من عاداهم ، ولذا جعل الله — تعالى — حكمهم وحكم المهاجرين واحداً فقال : « أولئك بعضهم أولياء بعض . . . » .

فاسم الإشارة يعود إلى المهاجرين السابقين ، وإلى الأنصار .

وقوله : « أولياء » جمع ولي ويطلق على الناصر والمعين والصدق القريب . . .

والمراد بالولاية هنا : الولاية العامة التي تتناول التناصر والتعاون
حوالتوارث . . .

أى : أولئك المذكورون الموصوفون بهذه الصفات الفاضلة يتولى
بعضهم بعضاً في النصرة والمعاونة والتوارث . . . وغير ذلك ، لأن حقوقهم
ومصالحهم مشتركة .

قال الألوسى ماملخصه : « روى عن ابن عباس أن النبي — ﷺ —
أخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصارى ،
إذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجرى وبالعكس ، واستمر أمرهم على ذلك
إلى فتح مكة ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة . . . وعليه فالآية
منسوخة بقوله — تعالى — بعد ذلك « وأولوا الأرحام بعضهم أولى
ببعض فى كتاب الله . . . »

وقال الأصم : الآية محكمة ، والمراد بالولاية بالنصرة والمظاهرة ، (١)
والذى نراه أن للولاية هنا عامة فهى تشمل كل ما يحتاج إليه المسلمون فيما
بينهم من تعاون وتناصر وتكافل وتوارث وغير ذلك .

وقوله — تعالى — : « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم
من شيء حتى يهاجروا . . . » بيان لحكم القمم الثالث من أقسام المؤمنين
فى العهد النبوى .

أى : هذا الذى ذكرته لكم قبل ذلك فى الآية هو حكم المهاجرين السابقين والآنصار الذى آوهم ونصروهم أما حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وهم المقيمون فى أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم . . فإنهم ليس بينهم وبين المهاجرين والآنصار ولاية إرث ، حتى يهاجروا ، إلى المدينة ، كما أنكم - أيها المؤمنون - لا تفتظروا منهم تعاونا أو مناصرة ، لأنهم - بسبب إقامتهم فى أرض الشرك وتحت سلطانه - أصبحوا لا يملكون وسائل المناصرة لكم . ثم قال - تعالى - : : وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق . .

أى : وإن طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم فى الدين ، فيجب عليكم أن تنصروهم ، لأنهم إخوانكم فى العقيدة ، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء هدوء ومهادنة ، فإذا كنتم فى هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا ، لأن نصرتهم على من بينكم وبينهم هدوء نقض لهذا العهد .

أى : أن نصرتكم لهم إنما تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار المعاهدين وهذا يدل على رعاية الإسلام للمود ، واحترامه للشروط والعقود قال الجبل : أثبت الله - تعالى - للقسمين الأولين النصرة والإرث ، ونفى من هذا القسم الإرث وأثبت له النصرة (١) . وقوله : : والله بما تعملون بصير ، تدليل قصد به للترغيب فى طاعة الله ، والنهي عن معصيته .

والله - تعالى - مطلع على كل أعمالكم فأطيعوه ، ولا تخالفوا أمره ، وقبل أن تذكر السورة القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، تتحدث عن ولاية الكفار بعضهم لبعض فتقول : : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . .

أى : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض في النصره والتعاون على قتالكم وإبذائكم - أيها المؤمنون - ، فهم وإن اختلفوا فيما بينهم إلا أنهم يتفقون على هداوتكم وإنزال الأضرار بكم .

وقوله : « إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، تحذير شديد للمؤمنين عن مخالفة أمره - سبحانه - .

أى : « إلا تفعلوا - أيها المؤمنون - ما أمرتكم به من العناصر والنواصل وتولى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة كبيرة في الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ، لأنكم إذا لم تصيروا بدار واحدة على الشرك ، يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصيرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وهرضكم . . وبذلك نعم الفتنة ، وينتشر الفساد .

وقوله - تعالى - « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آروا وفصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا . . » كلام مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار

إذ أن الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة قد ساقها الله - تعالى - لإيجاب التواصل بينهم ، أما هذه الآية فقد ساقها - سبحانه - للثناء عليهم والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله ، بخلاف من أقام من المؤمنين بدار الشرك ، مع الحاجة إلى هجرته وجهاده .

قال الفخر الرازي : أتى الله - تعالى - على المهاجرين والأنصار من ثلاثة أوجه :

أولها - وقوله : « أولئك هم المؤمنون حقا ، فإن هذه الجملة تفيد المباينة في مدحهم ، حيث وصفهم بكونهم محققين محققين في طريق الدين . وقد كانوا كفالك ، لأن من لم يكن محققا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال .

وثانيها - قوله : د لهم مغفرة ، والتكثير يدل على الكمال ، أى : مغفرة شاملة كاملة .

وثالثها - قوله : ورزق كريم ، والمراد منه الثواب الرفيع .
والحاصل : أنه - سبحانه - شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة .
أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله : أولئك هم المؤمنون حقا .
وأما في الآخرة فالقصور إما دفع العقاب ، وإما جلب الثواب .
أما دفع العقاب فهو المراد بقوله : لهم مغفرة . . . وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله : ورزق كريم ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - للسورة الكريمة ببيان القسم الرابع من أقسام المؤمنين في العهد النبوي فقال : والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . . .

أى : والذين آمنوا من بعد المؤمنين للسابقين إلى الإيمان والهجرة ، وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا مع المهاجرين السابقين والأنصار من أجل إعلاء كلمة الله ، فأولئك الذين هذا شأنهم : منكم ، أى : من جعلتكم - أيها المهاجرون والأنصار في إستحقاق الموالاة والنصرة ، وإستحقاق الأجر من الله ، إلا أن هذا الأجر ينقص عن أجرهم ، لأنه لا يتساوى السابق في الإيمان والهجرة والجهاد مع المتأخر في ذلك .

قالوا : والمراد بهذا القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، أهل الهجرة الثانية التى وقعت بعد الهجرة الأولى ، وقيل المراد بهذا القسم المهاجرون بعد صلح الحديبية ، أو بعد غزوة بدر ، أو بعد نزول هذه الآية ، فيكون الفعل الماضى : آمنوا ، وما بعده بمعنى المستقبل .

وقوله : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . . . بيان لحقوق الأقارب بالنسب .

والأرحام جمع رحم ، وأصله رحم المرأة الذى موضع تكوين الولد
على بطنها ، وسمى به الأقارب ، لأنهم فى الغالب من رحم واحد وأولوا
الأرحام فى اصطلاح علماء الفرائض : هم الذين لا يرثون بفرض ولا تمصيب
أى : وذووا القرابة بعضهم أولى فى النوارث وفى غير ذلك مما تقتضيه
مطالب الحياة من التكافل والتراحم .

وقوله : وفى كتاب الله ، أى : فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ،
وأوجب به عليهم صلة الأرحام فى هذه الآية وغيرها .
قال الألوسى : وأخرج الطيالسى والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس قال :
أخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض حتى
خلت هذه الآية فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب ، (١) .
أى أن هذه الآية الكريمة نسخت ما كان بين المهاجرين والأنصار من
التوارث بسبب الهجرة والمؤاخاة .

وقوله : وإن الله بكل شئ عليم ، تذييل ختمت به السورة الكريمة
لخص المؤمنين على التمسك بما أشتملت عليه من آداب وتشريعات وأحكام
لينالوا رضاه وثوابه .

أى : إن الله - تعالى - مطلع على كل شئ مما يدور ويجرى فى هذا
الكون ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى الذين
أسأوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .
وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المهاجرين والأنصار مدحاً عظيماً ،
كما مدحت المؤمنين من بعدهم ، وحضت الجميع على التناصر والتعاون وللتآلف
ورفعت من شأن رابطة الرحم وحضت على الجهاد فى سبيل الله ، وأمرت
بالوفاء باليهود ، وبالوقوف صفاً واحداً فى وجه الكفار حتى تكون
كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

وبعد : فهذا ما وفق الله إليه في تفسير سورة الأنفال ، أو سورة بدر — كما سماها ابن عباس — لأنها تحدثت باستفاضة عن أحداث هذه الفزوة وعن أحوال المقاتلين فيها ، وعن بشارات النصر التي تقدمتها وصاحبته وعن غنائمها وأسراها .

كما تحدثت عن صفات المؤمنين الصادقين ، وعن الأقوال والأعمال التي يجب عليهم أن يتمسكوا بها لينالوا رضا الله ونصره ، وعن رذائل المشركين ومسالكم القبيحة لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وعن المبادئ التي يجب أن يسيروا عليها المسلمون في حربهم وسلمهم ، وعن سنن الله في خلقه التي لا تتغير ولا تبدل ، والتي من أهمها :

أنه — سبحانه — لا يسلب نعمة عن قوم إلا بسبب معاصيهم وتفكيجهم للطريق القويم ، قال — تعالى — : **وذلك بأن الله لم يك مفعلاً نعمة أنعمه على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .**

وأنه — سبحانه — قد جعل العقوبة الحسنة للمؤمنين ، والعاقبة السيئة للفاسقين ، وأخبر المنحرفين عن صراطه بأنه [سيغفر لهم ما سلف من خطاياهم متى أقبلوا عنها ، وأخلصوا له العبادة .

قال — تعالى — **قل للذين كفروا إن يذهبوا يغفر لهم ما قد سلف .** وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقائمهم حتى لا تكون فتنة ويكونوا للدين كله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

وختاماً : نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا للمداومة على خدمة كتابه ، وأن يهين لنا من أمرنا رشداً ، وأن يتمم لنا نورنا ويغفر لنا إنه على كل شيء قدير .
وصلى الله على سيد محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محمد سيد طنطاوي

مفتي الديار المصرية

فهرس اجمالى لتفسير سورة الانفال

رقم الصفحة	رقبها	الآية المفردة
٢٧	١	جسألونك عن الانفال
	٢	إنما المؤمنون الذين
	٣	الذين يقيمون الصلاة
	٤	تأولئك هم المؤمنون حقا
٤٤	٥	كما أخرجك ربك
	٦	يجادلونك فى الحق
	٧	ولو إذ يمدكم الله
	٨	ليحقق الحق ويبطل
٥٢	٩	إذا تستغيثون ربكم
	١٠	وما جملته الله إلا
	١١	إذا يفشيكم النعاس
	١٢	إذا يوحى ربك
	١٣	ذلك بأنهم شاقوا الله
	١٤	خلكم فذوقوه
٧٥	١٥	يا أيها الذين آمنوا إذا
	١٦	ومن يولهم يومئذ
	١٧	ظلم يقتلهم ولكن
٧٥	١٨	خلكم وإن الله
	١٩	إن تستفتحوا فقد
٨٧	٢٠	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا
	٢١	ولا تسكوتوا كالذين
	٢٢	إن شر العوالب
	٢٣	ولو علم الله فيهم
١٩	٢٤	يا أيها الذين آمنوا استجيبوا

رقم الصفحة	رقبها	الآية المفسرة
٩١	٢٥	وانفقوا فتنه
	٢٦	واذكروا إذ أنتم
١٠١	٢٧	يا أيها الذين آمنوا لا تخوفوا
	٢٨	واعلوا أنما أموالكم
	٢٩	يا أيها الذين آمنوا إن نتقوا
١٠٨	٣٠	وإذ يمكر بك الذين كفروا
	٣١	وإذا تتلى عليهم آياتنا
	٣٢	وإذ قالوا لهم
	٣٣	وما كان الله ليعذبهم
	٣٤	وما لهم ألا يعذبهم الله
	٣٥	وما تكان صلاتهم عند البيت
	٣٦	إن الذين كفروا ينفقون
	٣٧	ليبين الله الحبيث من الطيب
	٣٨	قل للذين كفروا إن
	٣٩	وقاتلوهم حتى لا تكون
	٤٠	وإن تولوا فاعلوا
١٢٨	٤١	واعلوا أنما غنمتم
١٢٧	٤٢	إذ أنتم بالعدوة الدنيا
	٤٣	إذ يريكم الله في
	٤٤	وإذ يريكم وهم إذ التقيتم
١٤٥	٤٥	يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم
	٤٦	وأطيعوا الله ورسوله
١٤٩	٤٧	ولا تكونوا كالذين خرجوا
	٤٨	وإذ زين لهم الشيطان
	٤٩	إذ يقول المنافقون

رقم الصفحة	رقبها	الآية المفسرة
١٦٣	٥٠	ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا
١٦٣	٥١	ذلك بما قدمت أيديكم
١٦٧	٥٢	كذاب آل فرعون
	٥٣	ذلك بأن الله لم يك منيرا
	٥٤	كذاب آل فرعون
١٧٤	٥٥	إن شر الدواب عند الله
	٥٦	الذين عاهدت منهم
١٧٤	٥٧	فأما اتفقهم في الحرب
	٥٨	وأما يخافن من قوم
	٥٩	ولا يحسبن الذين كفروا
١٨١	٦٠	وأعد لهم ما استطعتم
١٨٩	٦١	وإن جنحوا للسلم
	٦٢	وإن يريدوا أن يخدعوك
	٦٣	وألف بين قلوبهم
١٩٦	٦٤	يا أيها النبي حسبك الله
	٦٥	يا أيها النبي حررض المؤمنين
١٩٦	٦٦	الآن خفف الله عنكم
٢٠١	٦٧	ما كان لنبي أن يكون
	٦٨	لولا كتاب من الله سبق
	٦٩	فكلوا مما غنمتم
٢١٠	٧٠	يا أيها النبي قل لمن
	٧١	وإن يريدوا خيانتك
٢١٦	٧٢	إن الذين آمنوا وهاجروا
٢١٦	٧٣	والذين كفروا بعضهم
	٧٤	والذين آمنوا وهاجروا
	٧٥	والذين آمنوا من بعد

رقم الإيداع ٢٠٦٨ / ١٩٧٩



٩٣٦٠٠٨٥

القاهرة

٧ ش باب الأخضر المشهد الحسيني